

الرحلة النجدية

تأليف

عائق بن غنيث البلادي

الطبعة الأولى



منشورات
دار المجمع العالمي - جدة

المقدمة

يختلف أدب الرحلات عن غيره من الانتاجات الفكرية ، ويختلف أسلوبها وطريقة عرضها وتقديدها عن أسلوب البحوث العلمية والعطاءات الفكرية الأخرى ، فهي خليط عجيب ممزوج من المشاهدات والانطباعات والاجتماعات والمحادثات ، وتختلف فيما بينها باختلاف مزاج كاتبها وأسلوبهم وطبيعة أنفسهم •

فقد تأتي جادة مترممة تقدم الجزل من المعلومات ، غير ملتفتة لغيرها، وقد تكون هازلة متلصصة لكل ماثير الانسان ويرضي فضوله ، وقد تجيء تصويراً صادقاً لكل ما يرى ويسمع ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ ذلك الرحال ، وهذه أيضاً تتأثر بمدى شفافية الكاتب الفكرية ومدى دقة ملاحظاته ومعرفته لما يشتهيه القارئ المتبع للرحلة ، ومدى قدرته على التصوير الطبيعي والاجتماعي لمشاهداته وملاحظاته •

وللرحلات أغراض :

فقد تكون الرحلة علمية مقصودة للبحث والتحري عن معلومات خاصة ، وقد تكون هواية ونتيجة رغبات ملحة لمشاهدات جديدة ، ومقابلات مقصودة •

وقد تكون مفروضة كمناسبة الانتقال ، ونحو ذلك •

ومن ثم كان على الكاتب الواعي أن يسجل ملاحظاته وما مر به في تلك الرحلة ، وكم من كنوز العلم مر بها مرتحل فضاعت بسبب الكسل أو عدم القدرة على التسجيل أو الرغبة في ذلك ، والعجز عن المتابعة .

والرحلات من أشد الانتاج الفكري ارهاقا ، فهي مشاهدات مسافر متعب ، ومعلومات جديدة تستدعي مباشرة الكتابة في حينها ، وأي تأجيل للكتابة يفقد الرحال معلومات لا تعوض ، من هنا كانت مرهقة فتحاشاها الكثيرون ، ومن هنا - أيضاً - جاءت مرغوبة يتشوق إلى متابعتها الكثير من القراء .

وهذه الرحلة - في قلب نجد - جاءت نتيجة عوامل شتى ، منها : إقني ظلت أحن إلى مشاهدة هذه الأرض الواسعة العجيبة من وطننا العزيز ، والتي طالما تغنى الشعراء بطيب هوائها وثراء مراعيها ، ونقاء هوائها ، وقد خرجت الكثير من فحول الشعراء وضربت الأمثال بسعتها ، ومن الشعر المشيد بفضل نجد قول الأعرابي :

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي
ويجلو ذرى الظلماء ذكرتني نجدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله
بنجد وتزداد الرياح به بردا ؟

وقول آخر :

سمعت رحيل القافلين فشاقتني ،
فقلت اقرؤوا مني السلام على دعد
أحسن إلى نجد وإنسي لآيس
طوال الليالي من قفول إلى نجد

تغرّ فلا نجد ولا دعد فاعترف
بهجر إلى يوم القيامة والوعد

وقول الآخر :

لعمري لمكّاء يعني بقفزة^(١)
بعلياء من نجد علا ثم شرقا
أحب إلينا من هديل حمامة
ومن صوت ديك هاجه الليل أبلقا

وقال آخر :

فيا هذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبت بالعتشي هواضبه
وريح صبا نجد اذا ما تنست
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

وقال آخر :

سقى الله نجداً من ربيع وصيف
وماذا ترجى من ربيع سقى نجداً ؟
بلى إنه قد كان للعيس مرّة
وركناً ، وللبيضاء منزلة حمدا^(٢)

وقال جعدة بن معاوية القشيري :

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشيّة من عرار^(٣)
ومع انني شاهدت كثيراً ما بين مكة والرياض وما حول الرياض ،

(١) المكّاء : طائر له صفيّر جميل .

(٢) من معجم البلدان « نجد » .

(٣) المجاز : ٢٠٢ .

غير أنني لأول مرة أشاهد القصيم ، والزلفي ، والمجمعة ، وحريملاء والعينية ، وغيرها ، ولأول مرة أدون عن هذه المناطق .

ومنها إن معظم الذين كتبوا عن هذه الأرض لم يسلموا من الأخذ من مراجع كانت قد دوت بالأحرف اللاتينية ثم ترجمت إلى العربية ، وهذا المنحى هو اليوم نكبة الجزيرة العربية ، فالصاد تقلب سيناً ، والهاء تقلب حاء ، فتتغير الأعلام تغيراً سيئاً ، فمترجم أحد هذه الكتب ترجمة قبيلة هيثم إلى حطيم ، وبلي إلى بالي ، والصواعد — من حرب — إلى سويد ، وغيرها وغيرها .

فحرصت هنا — مع اختصار هذه الرحلة — على أن أسجلها بلغة القرآن ، ضابطاً ما يحتمل حدوث الاشتباه فيه ، غير أخذ عن تلك المصادر ولا ملتفت إليها .

ولست أدعى أن المنطقة التي مرت فوقها رحلتي لا تزال بكرأ ، فقد علمت أنه سبقني ثلاثة أخوة نجديون إلى تغطية المنطقة جغرافياً ، وهم : ابن خميس في « المجاز » وابن جنيدل في « معجم نجد » والعبودي في « معجم القصيم » ومع أن المعجمين لم يطبعا على حد علمي فاني متأكد بأنهما سيخرجان إلى الوجود إن شاء الله .

غير أن هذه الرحلة تختلف اختلافاً تاماً عن كل ما تقدم ، فالمعاجم تعطي وصفاً لقطع من الأرض منفصلة عن بعضها ، وابن خميس في المجاز رغم شمول كتابه لمنطقة ما بين مكة والرياض وتوسعه واحتوائه ، كانت تنقصه النظرة إلى عرض المدن والقرى عرضاً تصويرياً ، ولم يعتن بالمسافات بينها ، والمسافات والاتجاهات — كما يعلم الجغرافيون — هي البديل عن الخريطة .

ولم يتعرض ابن خميس لتفصيل القبائل في المنطقة – الجغرافية البشرية – على أهمية ذلك •

وإذا جاءت هذه الرحلة مختصرة فاني حاولت أن أقدم فيها الجواهر واللباب، مبتعداً عن الاسهاب الممل، فمعلوماتها مركزة تقريرية، وإذا جنحت إلى الناحية الاجتماعية كمقابلات أولئك الأخوة والأدباء ورواد الفكر ، ودردشات أبي راشد وجوزاء وهمام وأبيه ، فانما هي صورة الحياة ، ولا أرى مأخذاً عليها بقدر ما تسلط ضوءاً على الحياة الاجتماعية في المملكة العربية السعودية اليوم •

وبعد ...

فهذا جهد خاص، ورغبة في المساهمة في التعريف – ولو بايجاز – بمنطقة واسعة من أرضنا الطيبة الدرور ، بما فيها وعليها من مدن وقرى وسكان – حضراً وبدواً – وحركة فكرية ومادية، حرصت أن أكون أميناً على إيصالها إلى القارئ بلا رتوش ولا مبالغات ولا محسنات ، فالحقيقة أهم من ذلك كله • والتكلف والاقحام يفسد أكثر مما يصلح •

وإن لم ترض البعض فحسبي منه أن يرى من قراءتها بأنها موقوفة على المشاهدة والاحتكاك الفعلي ، والالتزام مانع ما عدا ذلك •

والحمد لله حمد الشاكرين ، وأسأله التوفيق •

المؤلف

١

بين المدينة والرياض

في يوم ٢١ محرم سنة ١٣٩٦ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦ م
تلقيت مذكرة تفيد بأنه صدر قرار نقل خدماتي من وزارة الدفاع الى
وزارة الداخلية مديرية سلاح الحدود ؛ تظاهرت بأني سررت لهذا النبأ
بينما كان وقعه عليّ أليماً، فقد قضيت حتى الآن ما يقرب من أربع وعشرين
سنة في الجيش حيث التحقت به في سنة ١٣٧٢ هـ فألفته وتشربت بروحه
العسكرية البهتة ، ولا أعدو الحقيقة اذا قلت : انني كنت أحلم بأن
أصل إلى قيادات أعلى مما أنا فيه فأنا دائماً في طليعة اخواني في الدراسات
أو المساهمات العملية •

وكانت تقفز إلى ذهني بين حين وآخر صورة زميل لي قديم هو
الفريق عبد الله آل الشيخ مدير سلاح الحدود اليوم ، فقد تزاملت
وإياه في دورة بمعهد اللغات بالرياض لمدة سنة تخرجنا على أثرها من
قسم اللغة الانجليزية، وكان يصل تفكيري بين حين وآخر إلى أن سعادته
قد اختارني شخصياً لمعرفته إياي ، وكانت الأمانى انه إذا لم يكن قد
اختارني فاني لن أعدم فيه تقديراً وتعييناً لا يهضمني حقي •

بين هذه الأحاسيس والرؤى وتشتيت الذهن في خواطر وسوانح
تمر قائمة حيناً ومشرقة حيناً آخر قررت أن أستفيد من هذا الحدث ،
فأنا معني كل العناية بدراسة الجزيرة العربية بل وكل بلاد العرب ،
إذا في الامكان القيام برحلة برية الى الرياض والعودة عن طريق مكة ،
وهكذا قررت •

بدء الرحلة :

في ٢٣ محرم تحركت من تبوك بسيارتي المرسيدس (٢٨٠ س) بعد العصر فوصلت المدينة^(١) في الساعة الحادية عشر ليلاً فملت إلى طريق القصيم فتمت عند (مقعد مطير) في نفس السيارة .

على طريق القصيم

تحركت من مبيتي في الساعة صباحاً على طريق القصيم ، وعلى « ٥٣ » كيلاً من المدينة أشرفت على بلدة صغيرة على ضفتي واد عميق ضيق ينحدر من الشمال إلى الجنوب بين جبال سمر ليست بالشوامخ ، هذه البلدة هي :

الصويدرة

بلدة صغيرة عامرة تقع على وادي نجار — بالتخفيف — وقد يطلق على واديها وادي الصويدرة ، سكانها حرب ، وبها إمارة تابعة للمدينة المنورة ، وبها محكمة شرعية ومدرسة ، يصب واديها في المخالط ثم إلى العاقول فقناة ، كانت تعرف قديماً بالطرف وقد أخذت تنتعش وتتحسن ، وصار يتكاثر نزلها وتعمر أراضيها .

وما أن تجاوزت الصويدرة بأكيال حتى ظهر لي من الجنوب فضاء لا يحد النظر فيه ، تلك هي السهول والحزوم الواقعة جنوب الحناكية إلى جبال أبلي على ما يقارب من تسعين كيلاً ، تتخللها أجبل هنا وهناك

(١) وصفت ما بين المدينة وتبوك في رحلة بين المدينة وعمان ، فكرمت التكرير .

ضماضع ، وتجري فيها فروع وادي أضم حيث تتجمع جنوب الصويدة
في حضوضى ثم تدفع في « الخنق » ثم تمر بسد العاقول فوادي
قناة بين أحد والمدينة ، وهذا الوادي إذا سال قد يستمر سيله
الشهر وأكثر ، وكان يقطع السابلة إلى المدينة من نجد حتى عبد الطريق .
أما في الشمال فالجبال تحف بالطريق والحرار تقرب حتى ترى بعضها
غير بعيد .

الشقرة

وعلى « ١٤ » كيلا من الصويدة مرت بقريّة صغيرة تسمى
الشقرة ، وهي لبني عمرو من حرب وتقع على وادي الشقرة الآتي ذكره ،
ويوتها من الطين يعلوها الناظر وبها مقهيان وحانوت أو أكثر ، وكانت
الحركة لم تدب فيها بعد .

وادي الشقرة :

واد يسيل من حرة خبير « حرة النار » من جهاتها الجنوبية الشرقية
ثم يجتمع مع وادي الصويدة « الطرف » المتقدم ووادي نخل في
المخالط ثم إلى قاع حضوضى فالخنق فقناة .

وقد جعل بعض المتقدمين الشقرة حد الحجاز من نجد ، ولكنه
قول فيه نظر ، إذ أن حد نجد وراء الحناكية وسيأتي .

الحناكية

واصلت سيرتي ، وفي الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة كنت أقف في الحناكية ، فالطريق هنا معبدة تعييداً ممتازاً يغري بالسرعة ، ويعتبر - بحق - من أحسن الطرق المعبدة في البلاد العربية على الأقل وتبعد الحناكية « ١٠٠ » كيل شرق المدينة المنورة . توقفت في سوق يحف بالطريق كثير الحوانيت نسبياً قدرتها بالعشرين ، غير انها كانت كلها مغلقة ، فالبلدة لم تستيقظ بعد ، ونظرت إلى البلدة فاذا هي أحياء صغيرة منتشرة في الوادي يغطي بعضها شجر الدوم ، متباعدة حتى تغيب عن النظر ، كان هناك مقهى يدخله الناس ويخرجون منه فدلقت إليه فاذا عماله من اليمنيين ، فقد وصلت أزمة اليد العاملة حتى هذه القرى النائية .

سألته : ماذا يوجد عندكم « فطور » ؟ قال : بيض وتونة . قلت : فأنا محمي عنها فهل من الممكن الحصول على غيرها ؟ فأشار إلى حانوت بطرف المقهى أخذ صاحبه يفتح الباب قال : « نجيب لك جبة من عند راع الدكان » . وهكذا كان ، وعند دفع الحساب قال : « ثلاثة ريال » فلم أناقشه في ذلك ، مع انه سعر فاحش ، فبراد الشاي بنصف ريال في جميع المقاهي ، والجبة لا يزيد ثمنها عن ريال واحد .

وتقع الحناكية في واد فسيح واسع كثير نبات الدوم ، أخذ الوادي يسمى وادي الحناكية ، واسمه القديم « نخل » ويشرف عليها من بعد سلسلة جبال رَحْرَحان من الشرق الى الجنوب ، وسكانها قبيلة عوف من حرب .

ويقول المعمرون من أهلها : ان الحناكية كانت بئراً في هذا الوادي وكان سكانه قبيلة عنزة فدارت حروب بين قبيلتي حرب وعنزة جلت على أثرها عنزة عن هذه الديار واستولت عليها حرب^(١) ثم أخذت تنمو بعد ذلك حتى صارت بلدة وفيها اليوم أمارة تابعة للمدينة، ومدرسة متوسطة ومدرسة ابتدائية للبنين وأخرى للبنات ، ومن القرى التابعة لها « النخيل » بالتصغير •

وادي نخل : كجمع نخلة :

واد كبير متعدد الروافد ، كثير شجر الدوم قليل الزراعة ، وقد تقدم مذهب سيله معنا كان من ديار ثعلبة من غطفان ثم صار لعنزة حتى القرن الحادي عشر ثم ملكته حرب •

وخلط ياقوت بينه وبين آخر في طريق مصر فأورد قول المتنبي :

فمرت بنخل وفي ركبها عن العالمين وعنه غنى

وقال كثير :

وكيف ينال الحاجبية ألف يليل ممساة وقد جاوزت نخلا ؟

وقيل : على ليلتين من المدينة • وهو صواب •

وقال البكري :

قرية بواد يقال له شدخ ، لفزارة وأشجع وأنمار وقريش والأنصار،

(١) فصلت تلك الحوادث في كتاب « نسب حرب » •

وقال ابن حبيب : هي لبني فزارة بن عوف ، على ليلتين من المدينة .

قلت : شذخ جبل لا زال معروفاً غير بعيد من هنا . وقوله : قرية ، يدل على قدمها ، ومعنى هذا فانها أما اندثرت وعادت أو أن الرواية بأنها في القرن الحادي عشر كانت مجرد بئر للاستقاء ثم صارت قرية ، هو قول ضعيف .

عَرْجَاءُ

تحركت من الحناكية فصعدت ثنايا واعترضتني سلسلة غير عظيمة الارتفاع تكشف ماءها الغربي جهات الحناكية ، ويذهب الشرقي إلى نجد ، وهي على قرابة ثلاثين كيلاً شرق الحناكية ، هذه السلسلة يمكن أن تعتبر الحد بين الحجاز والقصيم أو بالأصح نجد ، ذلك على قاعدة أن ما سال غرباً إلى المدينة حجازي ، وما سال شرقاً نجدي . وعلى « ٨٤ » كيلاً من الحناكية شرقاً أي « ١٨٤ » كيلاً من المدينة وصلت بلدة ليست عامرة فيها مقهى ومبان ضئيلة ، هذه تدعى عَرْجَاءُ ، وكانت بئراً فصرت ، وفيها اليوم مركز امارة ومدرسة ، وسكان هذه النواحي بنو عمر والفُرْكَدة وعوف . من حرب (١) .

(١) فصلت بطون حرب وأخبارها وديارها في كتابي « نسب حرب » .

النقرة

واصلت سيري على طريق حسنة كنت أرى العداد يصل الرقم « ١٧٠ » وعلى « ٥٦ » كيلاً من عرجاء وصلت بلدة صغيرة أعمر من سابقتها وأكثر سكاناً ، فتوقفت للتزود بالوقود فوجدت عامل المحطة من السكان فسألته عن السكان فقال : بنوعمر والفردة من حرب ؛ وعرفت أن المحطة لشخص رويشي من بني عمرو وذكر لي أن في البلدة مدرسة ابتدائية ومقترح انشاء متوسطة ، وإن أمارة النقرة تتبعها قرى ومناهل منتشرة في الصحراء . وهذه صحراء واسعة قاحلة ذات مفاوز مفرزة قليلة المياه والسكان تبدأ من الحناكية في الحجاز إلى عقلة الصقور في القصيم ، ويبلغ طولها « ٢٢٠ » كيلاً ، كان الناس لا يقطعونها إلا قوافل وجماعات ، وجاءت الآلة وعبدت الطرق فإذا الإنسان يقطعها في ساعتين أو أقل كما فعلت أنا . وسألت هذا الشاب : أتوجد مدرسة للبنات ؟ فقال - بامتعاض وانكار - : لا لا .

النقرة في كتب الأدب

قال ياقوت : يروى بفتح النون، وسكون القاف، ورواه الأزهري بفتح النون وكسر القاف ، وقال الأعرابي : كل أرض متصوّبة في وهدة فهي نقرة وبها سميت النقرة بطريق مكة التي يقال لها معدن النقرة ، وهذا هو المعتمد عليه في اسم هذه البقعة ، ورواه بعضهم بسكون القاف .

وهو من منازل حاج الكوفة بين أضاح ومأوان ، قال أبو زياد :
في بلادهم ثقتان لبني فزارة بينهما ميل ؛ قال أبو المسود :

فصبت معدن سوق النقرة وما بأيديها تحسن فتره
في روحة موصولة بكيره من بين حرف بازل وبكيره

ثم يقول : بطريق مكة ، يجيء المصعد الى مكة من الحاجز إليه
وفيه بركة وثلاث آبار : بشر تعرف بالمهدي وبئران تعرفان بالرشيد ،
وآبار صفار للأعراب ، وعندها تفرق الطريق فمن أراد مكة نزل المغيبة
ومن أراد المدينة أخذ على العسيلة فنزلها .

قلت : وهذا الطريق الذي سلكته هو الطريق القديم إلى المدينة ،
ولما أن عرجاء لا تبعد سوى ٥٦ كيلاً من هنا فأعتقد أنها العسيلة .

بنو حرب

قبيلة خولانية قحطانية، هم بنو حرب بن سعد بن سعد بن خولان؛ كانت
مساكنهم كسائر خولان حول صعدة إلى مشارف جازان ، ويحدد
الهداني هجرتهم من هناك بأول القرن الثاني الهجري أثر حروب دارت
بينهم وبين اخوتهم الربيع بن سعد . فساروا حتى نزلوا الحجاز حول
الفرع والصفراء فجالدوا مزينة وسليماً وعنزة حتى سيطروا على ما بين
مكة والمدينة ، فاندمجت مزينة وقبائل من سليم وكنانة وعنزة في قبيلة

حرب ، وكانت حرب لا تزوج الى حرباً أو قرشياً كما قال الهمداني^(١)
وفي القرن الحادي عشر كانت القبيلة الوحيدة التي تناصب حرباً العداء
هي قبيلة عنزة ، فدرات بين القبيلتين وقائع دامية تسمى «وقائع المجللة» .
جلت عنزة على أثرها عن المدينة والقصيم ، فانساحت حرب إلى حدود
العراق .

وتمتد ديارها اليوم من قرب القنفذة جنوباً فعلى الساحل الى ينبع
فالى المدينة فقرب العلا ، فمشرقة إلى قرب بريدة ، مشملة إلى ضواحي
حائل وإلى لوقة ولينة قرب حدود العراق ، وقد أصبحت هذه القبيلة
شعباً لا تعرف حتى بعض بطونه لكثرتها^(٢) .

وتنقسم حرب الى :

١ - بنو سالم : سكان الصفراء ونواحي ينبع ووادي الحمض ،
وبعضهم في نجد ، وتنقسم إلى ميمون ، ومروّح ، ومن كبا بطون
ميمون : الأحامدة وولد محمد ، والمحاميد ، وبنو صبح . ومن بطون
مروح : الحوازم - وأظنهم بقايا غفار - والظواهر ، ومزينة ، وهي
قبيلة مشهورة .

٢ - مسروح ، وهي : زبيد ، وبنو عمرو ، وعوف ، وبنو السفر،
والفردة ، والفهدة ، وبنو علي والوهوب . ومن زبيد : الغوانم أمراء
رابغ ، والعسوم أمراء حرب في الزمن الماضي . ومن بني عمرو :
البلادية ، وبنو محمد ، ومعبّد ، وبشر ، والعبدة ، والعطور وبتون
أخرى عديدة .

ومن عوف : الصواعد ، واللهبة ، واللقامين ، والسهلية .

(١) و(٢) لي كتاب خاص « نسب حرب » تتبعت فيه الفروع والبطون
العربية .

عُقْلَةُ الصُّفُورِ

تحركت من النقرة بعد أن زودت سيارتي بالوقود فأخذت تنهب الأرض ، وليس فيما أرى ما يلفت النظر ، صحراء مستوية تتخللها الحزوم ، والأمطار لم تسقط إلا من يومين فلم يصب هذه الديار إلا رشاش وديم خفيفة ، وإنما جاءت أخبار المطر على حائل ونواحيها إلى ساق الجواء وهناك .

بدويان في الصحراء :

لم أصادف من ساعة تحركت من المدينة إلى الآن أحداً من سكان البادية ، وها أنا أرى بدوياً وامراً ترتدي ملابس المدن بكل ما فيها من خياطة وجاذبية ومعهما غنم وحمار وكلب ، لوحة استرعت انتباهي فأردت أن أصور هذا المشهد ، فوقفت على جانب الطريق فأخرجت « المصورة » ، ورفعتها ، فاذا بالرجل يرفع يده باسطاً الكف بعلامة « ممنوع » فأرخيت المصورة وتقدمت إليه ، فسلم بنفس يظهر منها عدم الرضا ، قلت : ممن الرجل ؟ قال : « وش تبني » ومرت المرأة دون أن تتوقف ، ولكن لم أر فيها صورة طلباء نجد التي قال فيها أمرؤ القيس :

حجازية العينين نجدية الجشا

ولعل النعمة هي التي غيرت هذه المعالم ، فلم تعد البدوية اليوم تتغذى على حليب الابل والتمر بعد أن أصبحت تقف إلى جانب بيتها سيارة تجلب أكياس الأرز والبر من المدن. وبعد مناقشة قصيرة مع ذلك الاعرابي قال : « تكلاك السلامة » وانصرف وتركني واقفاً أتلدد .

واصلت سيرى وفي قرب منتصف المسافة بين النقرة وعقلة الصقور ظهر لي - بعيداً إلى اليمين - جبل أسود مستطيل أبرز ماهناك من أعلام ، مستوي الظهر يقال أنه لا يعلوه إلا أنشط الناس وان في رأسه رس ماء في روضة لا يرده أحد ، هذا الجبل هو « طَمِيَّة » التي تحاك حولها الأساطير من العهد الجاهلي الى اليوم ، وسنتحدث عنها فيما يتبع .

وما أن أقبلت على عقلة الصقور حتى رأيت جبلاً أعفر بارزاً أجمل م هنا من الجبال ذا نعوف بينها أودية ، يشرف على عقلة الصقور من الشمال رأى العين كما أن طمية ترى في الجنوب ، ووادي الرمة بينهما ، وهذا الجبل هو جبل « قَطْن » الذي يشترك مع طمية في الأساطير وعشيقها ! وإلى الشرق قريباً من طمية يرى جبل « عكَّاش » منافس قطن على حب طمية !

وعلى « ٨٠ » كيلاً من النقرة وصلت عقلة الصقور : بلدة هي أكبر ما واجهت حتى الآن من قرى، تقع على الضفة اليمنى لوادي الرمة، وترقب طمية وقطناً وهي بينهما كعجوز عادل حروش ! سكانها قبيلة « الشعْب » من بني عمرو من حرب ؛ والعقلة هي الشجر الملتف من العضاة ، وكانت هذه العقلة منازل قبيلة الصقور من عنزة ، وعندما حدثت تلك الحروب الطاحنة بينها وبين قبيلة حرب نزحت عنها عنزة فاحتلتها بنو عمرو فعمرتها ، وهي اليوم إحدى قرى حرب العديدة المنتشرة على ضفتي وادي الرمة ، وهي أول قرى وادي الرمة مما يلي المدينة ، ذات مزارع وسوق عامرة وبها مدرسة ابتدائية ومتوسطه ، وقربها الى الغرب على قرابة ٢٥ كيلاً قرية البعاث وتتبع اداريا القصيم .

نزلت في مقهى هناك وطلبت شايّاً فتقدم مني شيخ عرفني على نفسه انه سويعد الحربي ، وطلب مرافقتي إلى بُرَيْدَة ، فأبنتها فرصة أستفيد

منه في رحلتي فوافقت ؛ وما أن سألته عن تلك الجبال حتى أخذ يشرح لي كل ما أريد ، وأخذ يقص الحكايات عن طمية وقطن وعكاش !

عواض السهلي

وقريباً من عقلة الصقور ظهر رجل يدعى عواض السهلي مر بجانبنا ونحن في المقهى فاذا هو رجل حسن الهيئة عليه سيماء الصلاح ذو لحية سوداء تغطي معظم مساحة وجهه ، وقد أصبح طبيياً له شهرة بعيدة المدى ، يعالج كل الأمراض بدون استثناء ! فهو يعالج السكر والسرطان والعقم والسل وغيرها ؛ والعلاج غالباً شرطة بحرف زجاجة مكسورة في مكان المرض ، قال لي رجل تعالج عنده عن العقم : شرطني بالزجاجة في فخذي • وقال شخص يشتكي عينه : شرطني فوق حجاج العين • والناس بين ذام ومادح ، ومصدق ومكذب ، والله أعلم والذي يزعم الناس أن عواضاً ليس له سكن يستقبل المرضى فيه ، وانما يعالجهم في العراء •

طِمِيَّةُ وَقَطْنُ وَعُكَّاشُ

تقول أسطورة تتجدد بتجدد الأزمان : إن طمية هذه الجبلية السوداء كانت بالحجاز قرب تلك الحرار ، وأن قطناً هذا الجبل الأبيض الجميل كان من نواحي المدينة ، فلما ربت نجد نزع قطن إليها ، وبينما كان في طريقه برق البرق فرأته طمية فأعجبت به وهوته فنزعت إليه ، فلما رأته رأي العين اعترض طريقها جبل أسمر من جلدها يقال له عكاش فاستغواها عن قطن وأقنعها أنه هو الاسمر أحق بها لأنهما

يتشابهان في اللون ، وهكذا لم يسعف قطن هذا جماله حيال الواقع
المرير ، فمالت طمية إلى عكاش فرمت مراسيها إليه معرضة عن قطن
جاعلة وادي الرمة بينهما •

وفي ديار الروقة شمال عشيرة ما حفرة كبيرة عميقة بجانبها بقية
جبل أسود يقول لها الأهالي « مقلع طمية » وتسمى الوعاء •

ويقول بعضهم : ان المزرعة من الجبل التي بجانب الوعاء يوجد
موضعها في طمية وبنفس المقاس والشكل ! ويدللون على ذلك بأشعار
يتوارثونها كقول أحدهم :

الهوى من قبلنا شدد طمية

فهل لهذه الاسطورة أساس في أدبنا القديم ؟

ينقل لنا ياقوت عن ابن الكلبي : ان طمية سميت بطمية بنت جام
ابن جسمى بن تراوة من بني عمليق ، وكانت طمية أخت سلم بنت جام
ابن جسمى عند ابن عم لها يقال له سلم بن الهجين فولدت له
خميراً وبرشق والقلاح والتريع فهم بالحيرة ، ألا ترى أن العبادي إذا
غضب على العبادي قال له : اسكت ياسلم بن طمية ، وانما يعني سلم
ابن طمية بنت جام بن جسمى وسمي الجبل بمكانه جبل بمكة ، قال أبو عبد
الله السكوني : إذا خرجت من الحاجر تقصد مكة تنظر إلى طمية ، وهو
جبل بنجد شرقي الطريق ، وإلى عكاش ، وهو جبل ، تقول العرب أنه
زوج طمية ، سمكها واحد وهما يتناوحان ، وفيهما قيل :

زوج عكاش طمية بعدما تأيم عكاش وكاد يشيب

ونقل عن الأصمعي أنه علم أحمر • وهو خطأ ، فطمية جيلة
سوداء •

وهناك شواهد وشروح عنها وعن قطن وعكاش ، وكانت هذه
الأعلام لعبس ثم آلت الى عنزة ثم إلى حرب بعد القرن الحادي عشر ،
وفي قطن مياه ونخيل وسكان ، وبه قرية باسمه ، وكل مياه هذه الأعلام
تصب في وادي الرمة ، طمية وعكاش من الجنوب ، وقطن من الشمال .

وادي الرمة

واد فحل من أكبر أودية العرب كثير الروافد الكبار ، كثير
المزارع والقرى ، أهل بالسكان ، يسيل من حرة خير « حرة النار »
ثم يتجه شرقاً ماراً بين جبلي طمية وقطن المتقدمين حيث تقع على ضفافه
قرى عديدة من أهمها : عقلة الصقور ، والبدايع ، وتادق ، والروضة ،
والبراء ، وعطاء .

ثم يمر بين مدينتي بريدة يساره وغنيزة يمينه ، ورواؤه مناه ،
ومزارعهما قائمة على ضفتيه ، ثم يصطدم بالنفود ، وهناك قد يخترق
هذه النفود اذا فاض فيدفع إلى حفر الباطن ثم إلى الخليج العربي قرب
الكويت .

وكان هذا الوادي في صدره لغطفان ثم أسفله عند قطن لعبس ،
وتقرب منه من الشمال ديار بني أسد ، ثم آل إلى عنزة ، ثم تملكته
حرب في القرن الحادي عشر ، وهم سكانه اليوم إلى قرب بريدة ،
وتسكن هتيم في بعض فروعه في الحرة ، ومنها قسم صغير في ابانين
الجبليين اللذين يمر وادي الرمة بينهما أيضاً ، ويأتي يانها .

ومن روافد وادي الرمة المهمة . مبهل ، وكان يسمى الريان ،

والعاقلي ، وكان يسمى عاقلاً^(١) ، ووادي الجريد ، وكان يسمى الجريب ، وكلها تأتية من الجنوب • ومن روافده وادي الحليفة : يأتي من حرة خيبر •

قال ياقوت : بضم أوله ، وتشديد ثانيه وقد يخفف :

واد معروف بعالية نجد ، وفي بطن الرمة منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة ، بها يجتمع أهل الكوفة والبصرة ومنه إلى العسيلة ، إلى أن يقول : وقال الاصمعي : سمعت أبا المكارم الأعرابي وابن الأعرابي يقولان الرمة طوية عريضة تكون مسيرة يوم^(٢) تنزل أعاليها بنو كلاب ثم تنحدر فتتزل عبس وغيرهم من غطفان ثم تنحدر فتتزل بنو أسد ، وفي كتاب نصر : الرمة ، بتخفيف الميم ، واد يمر بين أبانين يجيء من الغرب ، أعلاه لأهل المدينة وبنو سَلَيْم ووسطه لبني كلاب^(٣) وعطفان واسفله لبني أسد وعبس ثم ينقطع في رمل العيون ولا يكتر سيله حتى يمدّه الجريب واد لكراب •

وتقول العرب على لسان الرمة :

كل بني فانه يحسني الا الجريب فانه يرويني

وبين أسفل الرمة وأعلاها سبع ليال^(٤) من حرة فذك إلى القصيم •

وتقول العرب — أيضاً — قالت الرمة :

كل بنيّ يسقين° حسيّة فيهنّين° غير الجريب يروين°

(١) انظر بحثين للاستاذ المبدئي في مجلة العرب ص ٢٥ و ٢٥٢ ص ٧ سنة ١٣٩٢ هـ •

(٢) قوله مسيرة يوم خطأ ، والواقع أنه مسيرة أيام •

(٣) كانت ديار بني كلاب تقع جنوب الرمة على فروعه الجنوبية كوادي الجريب •

(٤) القول للأصمعي • وأراه صواباً •

الخيمة

خرجنا من عقلة الصقور فجزعنا الوادي « وادي الرمة » فظهرنا على أرض جرد تسمى خيمة قطن ، ذلك أن قطناً صار يسارنا يتصل به هذا السهل ، وهذه الخيمة مشهورة بنبات الزبيدي من الفقع « الكمأة » وهي أرض خبت تمتد على الضفة اليسرى للوادي الى قطن .

البدون :

وإلى اليمين ظهر لنا جبلا بَدَنَ وبَدَينة ، جبلان أسمران غير عظيمي الارتفاع ، يمر بهما وادي الرمة .

الحضر

وظهر أمامنا إلى اليسار بعيداً عن الطريق جبل الحضر أسود بارزاً ، بسفحه من الجنوب قرية الفوارة — بالفاء وتشديد الواو — وهي بلدة ابن نحيث أحد شيوخ حرب ، كثيرة الزرع ، وتتصل بالحضر من الشرق سلسلة جبال حمر ، وبعيداً أمامنا ظهرت جبال أبانين ، وهما سلسلتان تسمى احدهما أبان الأحمر والثانية الأسود يمر وادي الرمة بينهما ، وتر هذه الطريق بلصق الأسود من الشمال .

وما أن اجتزنا سهل الخيمة حتى برز أمامنا — صدفة — شاب في العشرين من عمره تقريباً عرفه الشيخ سويعد فقال : « هذا ولدي همام ، وقّف وقّف ! فتوقفنا فجاء همام وسلم على أبيه الذي سأله عن النياق

فقال همام : « مقطع الوادي » • يعني وراء وادي الرمة على جانبه الجنوبي حيث نحن على جانبه الشمالي •

وهنا قال همام : اتزلوا أنا صايد لي أرنب خلونا نشتويه ، أنا خابرك تعجبك الشوية • وهكذا كان فقد جنبنا عن الطريق وشب همام النار وقذف بالأرنب وسطها ، وكان كلما خبأت النار قال سويعد : أوقد يا همام !

وبعد أن أكلنا تلك الأرنب التي قد يزيد وزنها عن ثلاثة أكيال قلت :

جاء همام بعجراه معلقها من عُدُنْ نجد مربعة برامات^(١)

قال :

أقلطوا واشتووها فهي ضيفتكم والعَوْدُ ممن يهيم بالشويات^(٢)
كأن شي الأرانب في بلادهم شي كباب الرصيفة أو بكتكات^(٣)
لاشل منك على الخلبوص ضاغطة
وصِدَّتْ كل الأرانب في الفلاوات^(٤)

وواضح أنه شعر هزلي •

(١) رامتان : مكان يقع جنوبنا من هذا المكان ، أكثر الشعراء من ذكره •
(٢) جمع شوية : ما يشوي • وعدن جمع هدنة : انشئ الأرنب ، والذكر يسمونه الخرز ، ومن أمثالهم : «مثل الخرز في أقصى الغار» وأقلطوا: تفضلوا •
(٣) الرصيفة بلدة أردنية بين عمان والزرقام ذات منتزهات جميلة ، تقدم لروادها الكباب المشوي ، وكيت كات مطعم على شاطئ بيروت •
(٤) الخلبوص عند أهل البادية : الزناد ، وعجز البيت دهام بكثرة الصيد •

ثادق

تحررنا بعد أن ودعنا همام الكريم، وعلى (٥٧) كيلاً من العقلة وصلنا قرية ثادق ، قرية صغيرة على الضفة اليسرى لوادي الرمة ، سكانها بنو عمرو من حرب ، وخاصة البيضان ، وتقع إلى الشرق منها قرية « عطاء » للذوبة من بني عمرو ، وفي ثادق زراعة ومدرسة ومسجد تراه من الطريق ؛ وكل القرى في غربي القصيم لقبيلة حرب .

الروضة

وعلى « ٦٦ » كيلاً من العقلة مررنا بقَرْيَةٍ صغيرة تدعى الروضة ، بين ثادق والبتراء ، ليست بعيدة عن أبان الأسود إلى الغرب .

البتراء

وعلى « ٧٣ » كيلاً من العقلة وصلنا قرية البتراء ، قرية صغيرة بطرف أبان الأسود من الشمال الغربي ، ولم يلبث أن فرق إلى اليمين طريق الرس وعنيزة اللتين تقعان جنوب بريدة ، ويقطع هذا الطريق « السَّثْلِيل » شعب يسيل من أبان الأسود شرقاً ، ثم يقطع وادي الرمة حيث أقيم جسر ضخيم عليه ، وحيث المدينتان تقعان على الضفة اليمنى للوادي ، وعنيزة ثانية مدن القصيم بعد بريدة ، وأهلها مشهورون بالنباهة في طلب العلم .

وتعتبر الرس ثلاثة مدن القصيم الا أنه ليس لها من المذكر ما للسابقتين ، ولكنها مشهورة كسوق للبادية ، وتمتد إلى الجنوب والغرب من الرس مرابع نجد الشهيرة ، وعند مرورنا كان معظم أهل تهامة قد وصلوا على السيارات إلى هذه الديار وراء مواقع القطر ، وطلباً للنجعة •

أبانات

جبلان على ضفتي وادي الرمة، أحدهما على الضفة الجنوبية أشهب اللون يسمى أبانا الأحمر ، والثاني على الضفة الشمالية ويسمى أبانا الأسود ، وهو جبل أسمر اللون ، وكل منهما عبارة عن سلسلة جبلية تنحدر منها شعاب وفيها مياه ، وسكانهما من هُتيم ، ويمر وادي الرمة بينهما قبل مروره بين بريدة وعنيزة ، وبعد ابتعاده عن عقلة الصقور ، يضيّق بينهما حتى أنه يمكن سده فيما أرى •

ولأبانيين شهرة في كتب المتقدمين ، وتغنى بهما فحول الشعراء فقال امرؤ القيس :

كَأَن أَبَانَا ، فِي أَفَانِينَ وَبَلَه كَبِيرَ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مُّزَمِّلٍ^(١)

وقال اعرابي حبس باليمامة :

أَقُولُ لِبَوَائِي ، وَالسَّجَنُ مَغْلُوقٌ وَقَدْ لَاحَ بَرْقٌ : مَا الَّذِي تَرِيَانِ ؟
فَقَالَا : نَرَى بَرْقًا يَلُوحُ وَمَا الَّذِي يَشُوقُكَ مِنْ بَرْقٍ يَلُوحُ يَمَانِ ؟

(١) وهذا البيت في معلقة امرؤ القيس : كان ثبيراً ، الخ •

فقلت: افتح لي الباب أنظر ساعة
فقلنا : أمرنا بالوثاق ، وما لنا
فلا تحسبا سجن اليمامة دائما،
لعلي أرى البرق الذي تريان
بمعصية السلطان فيك يدان
كما لم يدم عيش لنا بأبان
وقال لييد :

درس المنا بمتالع ، فأبان
فتقدمت، فالحبس، فالسوبان(١)
وقال بشر بن أبي خازم :

ألا بان الخليط ولم يزاروا
أسائل صاحبي ولقد أراني
ثم بها الحداة مياه نخل
وقلبك في الظعائن مستعار
بصيراً بالظعائن حيث صاروا
وفيها عن أبانين ازورار
ويقول ياقوت : هما تشية أبان وشروري ، وقيل أبان ومتالع ،
فغلبوا التشية كما قالوا : العمران ، أبي بكر وعمر ، والقمران ، في
الشمس والقمر •

صَبِيح

وعلى ثلاثة عشر كيلاً من البتراء ، و « ٨٦ » من عقلة الصقور
وصلنا قرية صبيح : قرية صغيرة ولكنها عريقة على الجانب الأيسر من
الطريق ، ذات زراعة ، وأهلها خليط من الناس ؛ قال سويعد : « حرب
وحضر وخضيرين » والخضيريون : خلق كثير من سكان القرى والمدن

(١) درس المنا : أراد درست المنازل ، وعلق ياقوت على ذلك بأنه
من أقبح الضرورات ، وإنه لذلك •

النجدية ، لا يتزوج معهم القبليون ، وهم قبائل متعددة وربما عدنا
للحديث عنهم فيما بعد •

الذبيبة

ثم خرجنا من قرية صبيح في الذبيبة - كالمنسوبة إلى الذئب -
وهي قرى ومزارع منتشرة لا يكاد يحددها البصر ، سكانها الجبلاء من
حرب ، وفيها حركة عمرانية نشطة، ومنذ أن تجاوزنا قرية البتراء أخذت
الأرض تتسع حيث دخلنا سهل القصيم الزراعي الواسع ، وهذه أجزاءه
الغربية ، فصار الفضاء هنا لا يحد ولا تكاد ترى أعلاماً عدا جبلاً من
الرمل يقع جنوبنا بعيداً ، يليه من الغرب الطريق الموصل إلى عنيزة
والرس ، ومن الشرق يأخذه طريق آخر يوصل من بريدة إلى المدينتين
آتفتي الذكر •

غيب زواج :

خلفنا الذبيبة فاذا أناس على ماء يسقون أنعامهم، وهذا الماء ممدود
في أنبوبة من إحدى المزارع قرب الطريق ، كان أكثر الورد قد أخذ
يصدر فلمح سويعد امرأة هي آخر الورد فعرفها وطلب مني الخروج
إليها قائلاً : « إهزع إهزع على ها الورد تتعلمهم » • ولما وقفنا على الماء
سلم سويعد على المرأة بينما اتجهت أنا الى حوض نظيف وجعلت أغسل
وجهي ويدي وأنا أسمع ما يدور بينهما •

وكانت المحادثة : السلام والسؤال عن الحال والعيال ، ثم قال
سويعد : البارح عندكم عرس ؟

المرأة : إيه ، جزاع معرس على جريئة ا

سويعد : وكيف هو ؟

المرأة: عرس اللي يبغيك! جاب زوالي، ويقولون إنه أعطاهم خمسة عشر ألف ريال • وذبخوا يجي عشرين من الغنم ، وما غيرها المسجلات ترطن ! والله ماتسمع اللي في جنبك !

سويعد : عزة وخمسة عشر ألف ! والبنات بكم ؟

المرأة : البنات ؟ لا عاد تسأل ، بزي ما يطلب أبوها •

سويعد : جاكم مطر ؟

المرأة: ماجاشي قريّب، يقولون: طاحت أمطار على حایل قبل ثلاثة أيام وهدمت دور ، واللي جانا أمس يقول : وصل المطر إلى ساق والقوارة •

ومن المحادثة عرفت أن رفيقي سويعد له قطعان من الضأن والإبل، وأنها مكتوبة باسم أبنائه بينما يتقاضى هو مخصصات من الشؤون الاجتماعية !

المجازية

تركنا تلك المرأة الفصيحة صاحبة التعليقات اللاذعة ، ولم أستطع سؤال سويعد عن اسمها غير أنه من المؤكد أنها حريية •

وعلى « ٣٣ » كيلا من البتراء ، و « ١٠٦ » أكيال من عقلية الصقور مررنا في الحجازية: قرية صغيرة على الطريق غرب رياض الخبراء،

فيها زراعة متقدمة، وسكانها الحنانية من حرب^(١) وبيوتها كسائر القرى التي مررنا بها مكونة من طابق واحد من اللبن ، وقليل منها مبني من الطوب الاسمنتي ومسقفة بالخشب ، أما المسلح فنادر في هذه القرى . ولا زالت القرية النجدية غير متقدمة عمرانياً رغم ما يظهر على الناس من الثراء الفاحش ، ولكنهم راضون بما ألفوه من عيشة وسكن ، والذي يزعجهم هو طموح الشباب الذي يريد أن يغير كل شيء : المسكن والمأكل والمركب .

الدَّيْمِيَّة

قرية للحنانية من حرب تكاد تتصل بالحجازية ، والمسافة بينهما أربعة أكيال ، ذات مزارع واسعة ، وبيوت متناثرة ، ومنها ظهر لنا جبل « ساق » وهو ساق الجواء : شمالاً بارزاً ملموم الرأس أمغر .

ساق الجواء

جبل بارز ملموم الرأس أمغر منتصب في الصحراء تراه شمالاً وأنت تسير بين أبان الأسود وبريدة ، يسارك إلى مسافات بعيدة . يعرف اليوم بساق مطلقاً ، كانت حوله عيون جارية تسمى عيون الجواء فصارت اليوم تسمى عيون الجزبي . وقد غارت تلك العيون، وزراعتها اليوم على الضخ الآلي . وهو واقع في ديار حرب .

وللجواء وساق الجواء ذكر في المعاجم الجغرافية وأشعار العرب .

(١) لمعرفة فروع قبيلة حرب وأخبارها : يراجع « نسب حرب » .

القرين

وعلى عشرة أكيال من الدليمة وصلنا القرين : قرية زراعية لولد سليم ؛ وهي حد ديار حرب مما يلي بريدة على هذا الطريق ، وتبعد عنها - أي بريدة - « ٧٥ » كيلاً إلى الغرب ، وسبب تسميتها القرين وجود أكمة هناك صغيرة بارزة ، والعرب تسمى الجبل الصغير الحائز قرناً فإن كان صغيراً صغروه ، كالقرين بعرفة ، والقرن والقرين بالطائف وغيرها . وتبعد القرين « ١٢٠ » كيلاً من عقلة الصقور .

جنات القصيم

عندما قال شوقي :

أمنت بالله واستثنيت جنته

كان يقصد غوطة دمشق ذات البساتين الخضرة النظرة والفواكه التي تتساقط على الرؤوس ، ولا أدري ما كان يقول شوقي لو رأى اليوم تلك الجنان الخضرة التي لا يحددها البصر تحيط ببريدة أم القصيم وتمتد في كل اتجاه تقريباً عشرات الأكيال ؟ ولو لم أكن متأكداً أنني أسير على الطريق بين المدينة والرياض ما صدقت أنني في الجزيرة العربية ، وفي نجد خاصة ، هذه الأرض التي لا يعرفها الناس في الخارج إلا بالصحراء القاحلة ، وليس من رأى كمن سمع . فلقد أخذت ودهشت وأنا أسير بين حدائق رياض الخبراء ذات التنسيق الجميل والتخطيط البديع ؛ وقد أصبحت منطقة القصيم اليوم من المناطق هائلة الاتساع



النخيل في القصيم ٠٠٠

الزراعي تصدره إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وخاصة الجبج ذا الشهرة الواسعة ، وهو ما يعرف في الحجاز باسم « النموس » والنمس من الجبج : الطويل . وله حلاوة خاصة ، ومن أمثالهم ق « الشحم في الروس والحلا في النموس » .

وتنتج منطقة القصيم إلى جانب ذلك جميع أنواع الخضار والقمح ، وتشتهر بجودة تمورها ، وأجود أنواعها في « عنيزة » . ومنطقة القصيم غزيرة المياه ، وفي بعض الأماكن تضرب الانبوبة الارتوازية فيندفع الماء إلى أعلى عدة أمتار ، وعندما أراد أحدهم قفل أنبوبته اتزعمها الماء فألقى بها .

رياض الخبراء

مزارع واسعة تحيط بها سياجات من الأثل والأشجار الأخرى ، والخبراء : مدينة غرب بريدة بقرابة « ٥٥ » كيلاً ، وكل هذه المسافة مزارع متصل بعضها ببعض كانت الحكومة قد قامت باقطاع القادريين على الانتاج أراض زراعية في هذا الاقليم ، وقد أثمرت هذه السياسة ونجحت ربما فوق ما هو مخطط لها ؛ ولا زالت وزارة الزراعة توالي تشجيع المزارعين باعطائهم القروض والارشاد ، وتدفع الحكومة عن المزارع ٥٠٪ من تكاليف المزرعة ، وهو أمر مفرحاً ، ومشجع .

وبلدة الخبراء متقدمة عمرانياً ، والبناء على قدم وساق ، شجع الناس على الانهماك في البناء تلك القروض الضخمة التي تدفعها الحكومة عن طريق بنك الاعمار ، وتقسط على خمس وعشرين سنة .

البدائع

ومن الخبراء فرق طريق إلى اليمين إلى البدائع ، وهي قرية زراعية
لحرب على « ٢٥ » كيلاً جنوب غربي بريدة ، على ضفة وادي الرمة •

الهلالية

ومن الخبراء خرجنا إلى الهلالية على ثمانية أكبال ، بلاد وأراض
صالحة للزراعة •

الشيحية

ثم على الشيحية : مزارع على « ١٣ » كيلاً من الخبراء مما يلي
بريدة ، زراعتها حسنة وتخطيطها جميل •

المليداء

ومن الشيحية خرجنا في المليداء•أراض واسعة ذات فلاح حديثة،
تأخذ معها الطريق قرابة عشرين كيلاً ، وفيها - يمين الطريق - خزانات
ضخمة لبثرومين ، وبها مطار القصيم ، وتجري فيه تحسينات ، وهو
يمين الطريق أيضاً ، وسوف تلحق المليداء قريباً بباقي أراضي القصيم
ذات الخيرات الوفرة •

والمليداء مشهورة بتلك الوقعة التي أوقع ابن رشيد بأهل
القصيم فيها واحتل القصيم بعدها •

عيون الجزية

وبعد « ٤٠ » كيلاً من رياض الخبراء فرق إلى اليسار طريق عيون الجزية : عيون كانت تعرف بعيون الجواء المنسوب لها ساق المتقدم .

وتبعد عيون الجزية من هذا المكان قرابة أربعين كيلاً شمالاً غربياً، فيها مزارع على الضخ الآلي إذ أن العيون السابقة قد انقطعت .

طريق حائل

وقبل عشرة أكيال من بريدة غرباً فرق إلى اليسار طريق حائل ، عاصمة شمال نجد ، وتكاد تكون المدينة الوحيدة في تلك الصحاري الغبر ، وتقع شمال غربي بريدة ، وكان طريقها يفرق من قرب الحناكية ، غير أن ذلك الطريق لم يعبد بعد فصار الناس يأتون إلى هنا بسهولة هذا الطريق الذي عبد حديثاً رغم ما فيه من طول المسافة وقيل لي ان ذلك الطريق القديم ينوى تعبيده .

بريدة

أم القصيم وقصبتها مدينة جميلة تحيط بها السهول الزراعية التي تفجر فيها الماء ثجاجاً ، وأكبر مدن هذا الاقليم وتأتي بعدها عنيزة ، ثم الرس ، ويتبع بريدة عشرات القرى ، والعديد من الامارات ، تقع شمالي غربي الرياض على « ٤٠٩ » أكيال وشرق المدينة إلى الشمال على « ٥١٥ » كيلاً .

بها مدارس ثانوية ومتوسطة للبنين والبنات^(١) ، وأسواق عامرة لوقوعها في دائرة البادية ، وبلديتها نشيطة ، دل على ذلك مدخل المدينة الأنيق ذو الأربعة الممرات ، مرصوف ونظيف ، وكان المطر قد سبقنا إليها فكانت السيول تجري في الشوارع مما أحال المدينة أنهاراً بيضاء وعطل حركة المرور فيها •

وأهل بريدة حسنوا الاسلام شديداً التدين والمحافظة ، ويذكر أنه عند انشاء رئاسة تعليم البنات عارض البريديون أو بعضهم انشاء مدرسة في بريدة خوفاً أن يجرّ هذا التعليم مبادئ هذا العصر وأمراضه الاجتماعية ، ولكن الواقع اليوم هو تعدد تلك المدارس في هذه المدينة فجحافل العلم واردة التقدم لا يستطيع أحد أن يقف طويلاً أمامها •

وأمر بريدة اليوم هو سمو الأمير فهد بن محمد بن عبد الرحمن آل سعود^(٢) بل هو أمير القصيم • وكان مقرراً أن أمر على الامارة غير أن وصولي إلى هنا جاء بعد انتهاء الدوام •

تجولت في المدينة رغم تلك البحيرات البيضاء والطين في بعض الشوارع ، ورأيت تقدمها شيئاً وأتوقع لها مستقبلاً مزهراً •

وعدلت إلى مطعم في أحد الشوارع المعبدة فطلبت من صاحبه المتيسر ، وبعد الفراغ أخبرني أن الحساب « ١٣ » ريالاً مقابل نصف دجاجة وصحن رز • وهالني هذا لأنه يكلف في مكة مبلغ سبعة ريالات فقط ، فقلت له - وأنا أمد النقود - : لا بد أنك عرفت أنني لست من هذه المدينة !

(١) ثم أنشئت فيها نواة جامعة سنة ١٣٩٧ هـ •

(٢) استقال سنة ١٣٩٧ هـ •

فتكلم شيخ قريب مني قائلاً : « يا الأخ الناس اليوم كل صار
يبغي يفتني بسرعة » !
ولم يتكلم صاحب المطعم الذي كان قد قبض المبلغ ، فكان عنده
من الزبائن ما يشغله عن الحديث معي .
وعرفت هنا أن كيل اللحم يباع بأربعة عشر ريالاً ، رغم أن هذه
المدينة تتوسط البادية .

الرَّيْغِيَّةُ

خرجت من بريدة على طريق الرياض ، وكانت الساعة الرابعة بعد
الظهر تقريباً ، وبدت المزارع قليلة والأرض رملية تميل رمالها إلى الحمرة
وقد أكسبها المطر الذي سقط حديثاً لمعاناً زادها جمالاً ، فظهرت
مناظرها أخاذة مغرية بالجلوس ، وعلى « ٢٦ » كيلاً من بريدة مررت
بالريعية : بلاد ذات نخل تحيط بها الرمال وتزحف عليها من كل جانب
مهدهتها بالفناء ، غير أن أهل هذه الديار يقولون : إن زحف هذه الرمال
بطيئاً ولذا فانهم ليسوا منزعين من منظرها تحيط بقراهم ، وهذه
الرمال نعوف من امتداد نفود السر التي تمتد شمالاً حتى تتصل
بالنفود المتصلة بالدهناء .

الشَّامِيَّةُ

وعلى « ٣٢ » كيلاً من بريدة وصلت الشامسية : قرية كبيرة ذات
مزارع ونخل ، مستطيلة كأخدود بين النفود ، وعلى جانب الطريق الذي
تحيط به الرمال السائبة رأيت أرضاً عازاً صالحة لوقوف سيارتي قرب

بوقيات لبن هناك ، فأوقفت سيارتي وفرشت بساطاً على الرمل الناعم
ثم أخرجت الترمس « حافظ السائل الساخن » وبدأت في تحضير كوب
من الشاي •

وبعد استراحة قصيرة واصلت سيرتي باتجاه الزلفي ، أول مدينة
بعد بريدة على هذا الطريق •

نفود السُّورَات:

شربت ذلك الكوب على عجل وتحركت من الشماسية فसार الطريق
بين أراض رملية خالية من المعالم الواضحة ، وعلى « ٨٥ » كيلاً من
بريدة صعدت نفود الزلفي المعروفة بالثويرات ، وهي نفود ذات تعاريج،
رمالها حمراء جميلة ، كان المطر قد بلها قبل يوم أو يومين فبدت على
شمس الأصيل تتلألأ مما أكسبها منظراً بديعاً رائعاً ، وتمتد هذه النفود
من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي فاصلة بين اقليمي القصيم في
غربيها ، والزلفي في شرقيها ، وتتصل في الجنوب بنفود السر التي
تفصل بين اقليم اليمامة شرقاً وعالية نجد والسر والقصيم غرباً ، وهي
مع الدهناء والربع الخالي تجعل اليمامة كجزيرة يحيط بها الرمل •

المؤينه :

سرت في نفود الزلفي خمسة عشر كيلاً فوصلت نقرة وسط النفود
ذات نخيل وبوقيات لبن ضئيلة تحيط بها الرمال السائبة التي تغطي
بعض جذور النخل حتى لتكاد تبتلع كل ما في هذه النقرة الصغيرة فتجعلها
نسياً منسياً وأثراً بعد عين ؛ وفجأة برز شيخ بدوي إلى جانب الطريق
فأشر لي فتوقفت فأركبته ، ومنه عرفت إن في هذه النفود أزيد من

خمسین نقرة مثل المويه متناثرة وانها أصبحت مهجورة معظمها ، وأن نخلها يعيش عثرياً ويطلع فلا يؤبر ولا يجد • قلت : وليس في هذه الأرض قروء تستفيد من هذه المأساة كما هي العادة في الحجاز ، حيث تتحول النخيل الهاملة إلى مصايف لها • وكان اسم الشيخ ذبيان بن نفاع المطيري ، توقفت سيارتهم على الطريق ، وهو ذاهب إلى الزلفي لاحضار بيطار لاصلاحها •

نفاذ الوقود :

ما أن تحركت من موقعي للشيخ حتى انبعث من داخل الطبلون نور أصفر صغير مشيراً بأن الوقود قد نفذ ، وكنت نسيت ذلك أثناء الطريق رغم أن جميع عدادات السيارة تعمل بانتظام ، فلجأت الى تخفيف السرعة حتى صارت رجلي لا تكاد تلمس المدوس ، فانخفضت السرعة إلى « ٣٠ » كيلاً في الساعة •

وشعر مرافقي بذلك فسألني عن السبب ، قلت : غلق البنزين • قال : « يا كنبه خير » •

وتذكرت ذلك الدرس الذي ألقاه علينا مدرس في فن الصيانة حين قال : اذا أردت أن توفر الوقود فزد السرعة !

فرفعت يدي ، ولما أذن لي بالكلام قلت : أعتقد يا أستاذ أن الحقيقة غير ذلك ، بل عكسه • قال : « أنت دائم أفكارك غير أفكار الناس ! اجلس !

وقال زميل بجاني : أنت غلطان ، والحق مع المدرس ! • تذكرت هذا ، وقلت : ليت الذي بدأ وقوده ينضب الآن هو

مدرسي ذاك ، فلا شك أنه سيأتي على آخره خلال كيل أو كيلين •

وسلم الله ، فمازلت أخفف السرعة وأرقب ذلك النور الخافت
النذير بانقطاع في هذه النفود حتى ظهرت لنا بلدة الزلفي على « ١١٠ »
أكيال من بريدة •

وأول ما صادفنا من الزلفي محطة وقود على السفح الشرقي لنفود
الثويرات ، وقد أخذت الرمال تزحف عليها حتى غطت بعض جدرانها
الغريبة ، وسألت شيخ هناك ، ألا تخاف على هذه المحطة من هذا الرمل
الزاحف ؟ قال : لا ، هذا ترده الصبا ليا هبت ! • وأرى أن في قول
الشيخ شيئاً من الصواب ، فالرياح تتقاذف الرمل فتدفعه الغريبة إلى
الشرق وتأتي الصبا فتعيده ، وعندما هبت الصبا آخر تلك الليلة وأنا
في الزلفي كان أول خاطر بذهني قول هذا الشيخ ، وأنا أطلب المولى أن
تظل هذه الصبا تدافع الرمل عن مدينة الزلفي الجميلة •

وهذه سنة البديع الخلاق ، تتضاد الرياح فيكون في ذلك خيرنا ،
وتجذب الأرض لتزداد خصباً فيكون لصالحنا ، وتغاث هذه الأرض
بعد ذلك فتكون نعمة منه مزجاة إلينا ؛ سبحانه خلق جميع المتضادات
كالليل والنهار والحر والقر وأخلف بين طبائع الأرض ومن عليها ، كل
ذلك لعمار هذا الكون ولصالح هذا الانسان الذي فضله على ماسواه •

الزلفي

ينطقها أهلها بكسر الزاي ، وأرى الصواب ضمها « الزلفي »
لأن اشتقاقها من الزلفى ، وهي القربى ، والتزلف : التقرب •
بلدة على « ١١٠ » أكيال من بريدة شرقاً إلى الجنوب ، تجمع بين

القديم والحديث ، فيبوت الأحياء الشعبية لا زالت على طراز نجد القديم مبنية من اللبن الأحمر متلاصقة ذات ممرات ضيقة ، وإلى جانب ذلك ظهرت شوارع فسيحة معبدة ومسالك بلاسمنت المسلح على جانبي الطريق ، وجميع مباني الدولة هنا من ذات التصميم الحسن والرونق الجميل ، وكانت شوارعها موحلة لهطول المطر في تلك الأيام .

وفي الزلفي مدرسة ثانوية وأخرى متوسطة ، ومدرسة للبنات أو مدرستان ، وأعمال بلديتها تدل على سعي متواصل ، غير أن لجهد الانسان حدوداً ، ونحن قوم طُمُح نريد أن نسابق الريح في التقدم ، لذا تسمع عدم الرضا عن سير المشاريع ، والأيدي العاملة في المملكة هي اليوم من الأزمات المستحكمة ، وجل الذين نستوردهم للعمل الانشائي لا يلبثوا أن يندمجوا في المجتمع فيتعاطوا التجارة ، فطول رحلتي هذه ورحلاتي الأخرى لم أجد سعودياً في مطعم أو مقهى إلا نادراً .

ومدينة الزلفي تقع في احدود مستطيل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وهو نهي زراعي مخضر تحيط به من الغرب على طول امتداده نفود الثويرات ، وكان يخيل إلي أنها تزحف إليه ، غير أن أهل الزلفي لا يخشون ذلك ويؤكدون عدم انتقال هذه النفود . والقول ما قالت حذامي - وأهل مكة أدرى بشعابها . وقدمنا عن هذا ما يكفي . ويحف به - سهل الزلفي - من الشرق جرف حاد مرتفع لحزم عال يمتد بامتداد السهل والنفود تتبارى كلها في اتجاه الجنوب الغربي .

والمدينة هي قاعدة امارة الزلفي ، ويسمى الاقليم باسمها . وأهلها ذوو أخلاق مرضية يميلون إلى المرح والابتسامة . وتخطيط المدينة جميل وحركة العمران العامة نشطة ، وهي من آثار بنك الاعمار المتقدم الحديث عنه .

ليلة في الزلفي

تجولت في مدينة الزلفي رغم كثرة الوحل والمياه الراكدة غب ذلك الغيث المبارك ، ثم خرجت الى مقهى بظاهر البلد على الطريق ، وكانت الساعة تقترب من الساعة ، أي انني قد قضيت اثنتي عشرة ساعة في السير المتواصل ، وكنت قصدت الاستراحة في الشماسية حتى نعصها عليّ الشيخ الطيب ، وقد أمسيت الآن منهكا تماماً فجلست في ذلك المقهى الذي يقدم الطعام - كبسة الدجاج - إلى جانب القهوة والشاي، وأديت صلاة المغرب مع جماعة من المسافرين أمهم أمي لا يحسن حتى قراءة الفاتحة ، ثم اطرحت على سرير خشبي وضعت فراشي عليه ، وبعد العشاء والشاي قال المقهوي : الحساب « ١٧ » ريالاً بينما هو في حقيقة الأمر يساوي فقط ثمانية ريالات ، ولكن جميع العاملين هنا من اليمنيين الأجراء ، وكل تصرفاتهم ارتجالية وحسب منظر الزبون ! وقد رأيته حاسب آخر بجاني على أحد عشر ريالاً وعلى نفس الكمية .

كان البرد قارساً غير أنني كنت مرغماً على قضاء هذه الليلة في العراء ، فالغرف الموجودة كلها وسخة ومكتظة باليمنيين العاملين في البلد ، ولذا فضلت البرد على تلك الحالة . وكانت ليلة ليلاء من ليالي كانون المشهور ببرده ، وفي فضاء من أفضية نجد الواسعة التي تسمع لرياحها صريف وصير .

سائح

قضيت في ذلك المقهى ليلة ليلاء هبت فيها الصبا التي كانت تزف السحاب الجون إلى حيث أرسله البارئ المنشيء مما زاد في برودتها ،

و كنت - لتعبي - قد نمت وتركت مذياع السيارة مفتوحاً، وفي منتصف الليل أيقظني عامل المقهى لإغلاقه ، ثم عدت الى نوم عميق لم أفق منه إلا على صوت المكبر في الزلفي وهو يردد الآذان، وفي الخامسة والنصف كنت قد تحركت على طريق الرياض ، وعلى « ٢٠ » كيلاً من الزلفي مررت بسليح : نخل وبيوتات طينية يسار الطريق •

الفاط

الفاط : بالتخفيف : بلدة صغيرة على « ٣٧ » كيلاً من الزلفي ، بيوتها من اللبن ذات طبقة أو طبقتين ، في واد ضيق كثير النخل ، ولضيق الوادي لم يجد الطريق مناصاً من هدم الكثير من بيوت الفاط حيث بدت الجدر المنهارة على قارعة الطريق ، وكان واديها يمشي سرباً في ذلك اليوم ، وفي الفاط مدرسة ومسجدان ، وأمارة أحسبها تابعة للزلفي ، ولضيق واديها تفكر الحكومة في نقلها إلى ظهر ذلك الحزم الذي ينحدر منه واديها ، وتخطيطها تخطيطاً حديثاً ، وواديها يتجه إلى سهل الزلفي مغرباً • ولأهل الفاط - على صغر بلدتهم - ذكر غير خامل في نجد ، ومنهم أمراء نواحي وكتاب وموظفون مرموقون ، و « الناس مخابر وليسوا بمناظر ! » •

الجمعة

مدينة صغيرة على « ٨٠ » كيلاً من الزلفي ، و « ١٩٠ » كيلاً من بريدة ، و « ٢١٩ » كيلاً من الرياض • وهي أكثر تقدماً من الزلفي وأحسن تخطيطاً ، فشوارعها منظمة ، ومنارة بالكهرباء ، وتقع في سهل واسع أفيح تتخلله بعض الأكام الصغيرة ، وزراعتها حسنة ، والمشاريع

تجري فيها في سرعة حسنة ، وتجمع الجمعة الصغيرة
- كسائر مدن نجد - بين القديم والحديث غير أن التصميم
واضح على إبادة ذلك القديم ، يظهر ذلك من نفس البيوت
والقلاع الطينية الذي يجري بلا هوادة ، فالثروة اندلعت وأصبحت
الأوراق النقدية كأوراق المطبوعات ، وبنك الاعمار يعطي سلفاً تزيد
عن الحاجة ، فأصبح كل يريد أن يسكن فلة جميلة يحيط بها سور
وتعطي نوافذها الأشجار •

وصلت إلى الجمعة مبكراً وكانت الشوارع شبه خالية الا من
العمال وبعض المزارعين المتجهين في حث إلى أعمالهم ، والدكاكين مقفلة،
وكنت رغبت أن أرى السوق القديم فذهبت أجوب الشوارع بسيارتي
فاهتديت إلى مجموعة كبيرة من الحوانيت الطينية عرفت أنها السوق
القديم ولكنه كان خاوياً فلمحت عن بعد مطعماً صغيراً - وما أقل
المطاعم والمقاهي في هذه المدن النجدية الصغيرة - فذهبت إليه فتناولت
فيه فطوراً من الفول والسمن الجيد اللذيذ ، وقمت بعد ذلك بتحضير
كوب من الشاي اللبّتن •

عدت الى السوق في الثامنة حيث فتح أول حانوت كان يبيع كل
ما يلزم البادية ، فسلمت على صاحبه فدعاني إلى الجلوس في رحبة داخل
الدكان مفروشة ، كان شيخاً أشيب حسن البشر سريع النكتة يجري في
عروقه دم الشباب ! سأله شخص بكم هذا ؟ قال : بإبدال الميم فاء !
ثم نهض وتركني في الدكان ولم يلبث غير دقائق فعاد بدلة يفوح منها
ريح الهيل ، ثم عاد ثانية فأحضر براداً من النوع الفاخر مملوءاً شايًا ،
كان هذا عنوان كرم أهل الجمعة ، وكنت قد حلفت له أنني قد أفطرت
وبعد ذلك ذكرت له قصة الشماسي ، فقال : وكل سقاء بالذي فيه
ينضح •

فعرفت أنني أمام رجل له حظ من الثقافة ، فسألته عن اسمه فقال : أنا صاحب الدكان ! وحضر الشاي جار له فقال : أما رأيت فلاناً قد حضر أمس ، ويقال انه عيّن في منصب كذا . قال صاحبنا : لكل زمان رجال .

وفي التاسعة بدأت تفد إلى السوق سيارات البادية ذات الأحواض الصغيرة « ونيئات داتسن » ومدن نجد التي مررت فيها لا تظهر فيها المرأة المتحضرة ، أما البدويات فيجبن الأسواق ويشترين مباشرة ، ومن جاء إلى صاحبنا هذا امرأتان عنقاوان مبرقتان كأن عيونهن عيون المها فساومناه في حاجيات عرفت منها أن سعر كيل الهيل ثمانون ريالاً وكيل القهوة بسبعة ريالات ، وكان الحوار : آخر الكلام ؟ ما زود عليكم . هاودنا . هذي المهاودة . حنّا عملاك . دمتوا وسلمتوا ! ولشدة المكاسرة نزل الهيل إلى « ٧٥ » والبن إلى « ٦٣ » . وعرفت منه انهما من البرازات من مطير ، وهي غير برازات السهول ، وديار مطير نجد تقع شمال الجمعة إلى حدود الكويت ، وكانت ديار مطير سفوح حرة الحجاز الشرقية بين جبال أبلي شمالاً ، ووادي المحاني جنوباً منساحة في عالية نجد الى ضرية ونفء وعنيزة ، ثم حدثت بينهم وبين عتيبة حروب أجلت معظم مطير الى هذه الديار ، وبقيت بنو عبد الله في ديارها بالحجاز^(١) . وفي جلاء مطير يقول ابن ربيعان لرجل من عتيبة لم يشترك في تلك الحروب :

منها طردنا الدويش اصرار الابهالي يوم أنت يم الرها تبني حناياها^(٢)

وجاء رجل يتواعد من صاحبنا على السفر غداً فقال له : « اترك الساعة ، واذا وذن ديك أمك تعال !

(١) عن فروع بني عبد الله : انظر كتابي « معجم قبائل الحجاز » .

(٢) حناياها : جمع حنية : زربة الغنم .

أعدت عليه السؤال - وأنا أتأهب لمغادرته - عن اسمه ، فقال :
« اسمي ثلاثة أحرف ، اذا حذفت آخرها فهو قبيح ، واذا حذفت
أوسطها بمعنى أكل ، واذا قلبته فهو لفظة انجليزية لأحد أعضاء
الانسان .. وكان مستعد أن يزيد ويزيد غير أنني شكرته وغادرته
لأنني كنت في حاجة إلى الجد كحاجته إلى الهزل •

والواقع أن أهل الجمعية دمثوا الأخلاق رقيقوا الشرائع ، بعيدون
عن الصلف والتزمت ، وقد عرفت منهم بعض الشبان في الرياض كانوا
محبين للبحث والأدب •

قبيلة مطير

قبيلة اختلف متأخرو النساب في أصلها ، فقال بعضهم : هي
بقايا غطفان • وأراد آخرون تجنب الزلل فقالوا : هي من عدنان
وقحطان ! وهو أمر لم تسلم منه قبيلة اليوم •

قلت : الظاهر أن القولين صواب ، غير أن هناك ما هو أوضح ،
وهو ما أورده صاحب معجم قبائل العرب عن تاج العروس أن مطيراً
بطن من حكم ابن سعد العشيرة من مذحج ، وهم : مطير بن علي بن
عثمان بن أبي بكر الحكمي • ثم يقول : الحكم بن سعد العشيرة :
بطن من مذحج ، من كهلان ، من القحطانية • قال الزبيدي : ولبنى
حكم بقية كثيرة باليمن ، منهم بنو مطير ، كانوا يقطنون بتهامة في
نواحي أبي عريش ، مجاورين لحاشد ، وخولان ، وكانت تبلغ مساحة
مقاطعتهم مسافة خمسة أيام • ثم عدد أوديتهم فاذا هي من حرض
جنوب جازان إلى صيبا شماله^(١) • ولا زالت لبني حكم بقية جنوب

(١) معجم قبائل العرب : ٢٨٦ ، ١١١٢ ، ١١١٣ •

شرقي جازان ، ولهم بلدة المضايا على الطريق إلى سامطة .

قلت : إذا قبيلة مطير كانت تسكن تلك الديار مجاورة لقبيلة حرب ، ثم حدث ما أوجب نزوحها كما حدث لحرب فنزلت ضواحي المدينة الشرقية مجاورة لحرب أيضاً ثم اندمجت فيها بقايا غطفان التي كانت تسكن هذه الديار والتي كانت قد شاخت ككنانة وسليم فأصبحت هشة قابلة للتفتت أما القبيلة الغازية فليس لها من أسباب البقاء في هذه الديار سوى قوتها ، ولما أن حرباً استوطنت بين مكة والمدينة ظهرت على سطح الحوادث وتحدث عنها الحجاج في رحلاتهم بينما ظلت مطير منزوية في تلك البقاع المجهولة على السفوح الشرقية لحرة الحجاز مشغولة بمكافحة أربع قبائل شرسة هي : حرب في الغرب ، وعنزة في الشمال ، وعتيبة في الجنوب وبنو لام في الشرق وخاصة بني الظفير ، واستطاعت مطير أن تدفع بقايا بني لام فتتوغل في نجد شرقاً ، غير أن الحركة الطاحنة بين القبائل التي حدثت في القرن الحادي عشر جعلت مطيراً بين فكي كماشة ، حرب من الغرب والشمال - بعد جلاء عنزة - وعتيبة في الجنوب ، وقد تقدمت الإشارة الى ذلك .

ونتيجة إلى هذا الضغط انقسمت القبيلة إلى قسمين : قسم ظل في دياره الأصلية - كما أشرنا آنفاً - والقسم الأكبر انساح في أسافل نجد في شمال اليمامة إلى حدود الكويت ، وبعد توحيد المملكة والضرب على أيدي مشيري الحروب من القبائل تمكنت كل قبيلة في أرضها الجديدة ولم يعد لها الحق في المطالبة بتلك الديار ، فاستقرت هذه القبائل وبنّت المدن الصغيرة والقرى مما زاد في عمران الأرض ورفاه المجموع .

وتنقسم مطير إلى فرعين كبيرين ، هما :

١ - علوة ، ومن فروعها :

أ - الموهة ، ومنها : الدمشان ، والرخصان ، والخواطرة ،^(١)

ب - الجبلان ، ومنهم : العقيقات ، والمقالدة ، والأعنة •

ج - ذوو عون، ومنهم: الصهبة، والملاعبة ، والمطيرات ، والحلف

٢ - برية : وتقول رواة سبيع : ان برية هذه كانت زوج عمير بن سبيع فأنجب منها وتوفي عنها فتزوجت في مطير فأنجبت ، فبنو بريه خليط من سبيع ومطير •

وتنقسم بريه إلى :

أ - وسامة الهلال ، ومنهم : الصعران ، والصعبة •

ب - واصل ، ومنهم : المريخات ، والبرزان ، والعيبات ، والدباحين ، والهوامل •

ج - بنو عبد الله بن غطفان : ومنهم : الصعوب ، وذوو عون^(٢) ، وميمون والشلالحة ، والعرايزة •

وليست هذه هي فقط بطون مطير ، ولكن الرحلة مختصرة وهذه لمحة سريعة ، ومن المراجع التي توسعت واختلفت في فروع مطير : معجم قبائل العرب ، وكنز الأنساب ، وقلب جزيرة العرب • وحبذا لو تفرغ رجل من هذه القبيلة فقدم اليقين الأصح عن أنسابها وفروعها وتأريخها ، فان الرائد لا يكذب أهله ، وأهل البيت أعرف بدخائله •

(١) في الكتب التي بين أيدينا اليوم اختلاف كبير في بطون مطير •
(٢) هذا أصح من القول أنهم من علوة ، والخلاف بين المراجع شائك •

جَلْجَلُ

خرجت على طريق الرياض ، وعلى نحو من ثلاثين كيلاً مررت في بلدة جلاجل : بلدة صغيرة في واد زراعي عميق ، فيها غابات من النخل، ويوتها كيوت الغاط ، فيها مدرسة ومسجد • وعلى جلاجل والتؤيم المتجاورتين قول الحطيئة :

عفا تؤم من أهله فجلاجلته ° فردت على الحي جميع جمائله (١)
وقول ذي الرمة :

أيا ظبية الوعاء ، بين جلاجل وبين النقاء، أأنت أم أم سلمة؟ (٢)
وقال ياقوت : جلاجل جبل من جبال الدهناء ، وعدم دقة تحديدها من سمات التأليف في تلك الحقب •

التؤيم

وبعد جلاجل بثمانية أكيال مررت في بلدة التؤيم : بلدة جل بيوتها من اللبن ، ذات نخل كثير ، تقع في نفس وادي جلاجل ، وكان السيل يمشي والعدر كثيرة ، ولها ضاحية يسرة الطريق جميلة قائم العمل فيها على بناء فلل ويوت مسلحة ، بينما أنشئ جسر يربط البلدة القديمة بالطريق العام يمر فوق الوادي العميق المتجه إلى مطلع الشمس حيث تنتظره رمال الدهناء •

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٣٩ •

(٢) معجم البلدان « جلاجل » •

روضه سُدير

بلدة صغيرة على « ٤٨ » كيلاً من المجمععة و « ١٧١ » كيلاً من الرياض ذات مزارع ونخل في واد كبير العمل جار في سد لهذا الوادي، ومتى تم سيكون له أثر زراعي طيب على الروضة والحصون وربما الحوطة القريبة منها ، وتربتها خصبة وزراعتها جيدة ، وتدل بيوتها على عراقتها ، وكذلك نخلها •

الحصون

وبعد روضة سدير بثلاثة أكيال وصلت الحصون ، مزارع ذات نخل ، تتبع الروضة ، وواديها واحد •

الحوطة

وبعدها على « ٥٨ » كيلاً من المجمععة كانت الحوطة ، وهي غير حوطة بني تميم المشهورة ، فتلك جنوب العارض وهذه شماله •
والحوطة أو حوطة سدير متقدمة عمرانياً ، ذات مبان مسلحة ، حسنة التخطيط • وزراعتها حسنة ، وفيها جميع المرافق من بلدية وتعليم وغير ذلك •

وخرج الطريق من الحوطة في صحراء واسعة ذات حزم قليلة السكن ، وعلى « ١٠٥ » من المجمععة فرق يميناً طريق الصفرات ، وعند المفرق زراعة وبويات أحدثت بعد شق الطريق ، ثم سار الطريق مسافة تزيد على مائة كيل في فلاة لا سكن فيها ولا ماء •

٢ من الرّياض

على « ٢٠٨ » أكيال من المجوعة واجهتي أول معالم الرياض ،
عندما لمحت إلى اليمين مدينة الدرعية الخضراء ذات التأريخ المشهور
والمجد المنسي ، وتقع الدرعية على أحد عشر كيلاً شمال الرياض ، على
ضفاف وادي حنيفة ، كثرة النخيل والبيوت اللبن والقلاع الأثرية ،
ورغم أن الرياض كان يوماً من فلائح الدرعية إلا أنها تكاد تصبح حياً
من أحيائه ، وعلى القاعدة القائلة « أكرموا عزيز قوم ذل » جعلوا في
الدرعية بلدية وهيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي هيئة
تذكر في نجد فتشكر حيث لا زالت تذكر الناس بالصلاة وترشدهم ،
بخلاف ما في الحجاز . كانت الشمس تتأهب لمغادرة هذه الأرض كصدر
الوثراد ، بعد يوم شمس ممتع ، ولم أكن احتاج إلى دليل في الرياض
غير أنه « عقبنى على الديمة سيل »^(١) وعادني أن أنزل في البطحاء ،
ودلفت من شارع فسيح إلى شارع ذي أشجار وأزهار وحدائق ، فإذا
بى في شارع طارق بن زياد ، أي قد تجاوزت البطحاء فعدت ثانية فإذا
بى في أم سليم ! وحدرت وسندت حتى قاربت الساعة الثامنة فيئست
من الحصول على البطحاء ، فأوقفت سائق ونيت فسألته ، فقال اتبعني ،
وماهى إلا لحظات حتى عرفت الشارع الذي أنا فيه فإذا هو المنشود .

وفي فندق الحرمين في البطحاء استأجرت غرفة ، وبعد نقل العفش
واستلام المفتاح ذهبت إلى مطعم اليمامة وعدت فارتميت على السرير ،

(١) المثل يقول : عقبك على السيل ديمة . أي ضيعت معالمه ، غير أن
قلبه منا هو المناسب .

وعندما مدت يدي لفتح درج الطاولة التي أمامي « كمدينة » خرج الغطاء في يدي !

ونمت ، ولم يرعني الا وكل ما تحتي يسقط إلى الأرض ، ولشدة التعب وحلاوة النوم وددت أن أبقى كما أنا غير أنني كالمستحي من نفسه نهضت إلى السرير الآخر •

أول يوم في سلاح الحدود

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

بكرت صباح يوم ٢٦ محرم ١٣٩٦ هـ فسرت في طريق المطار ، ومن باب وزارة الداخلية دلفت إلى مبنى المديرية العامة لسلاح الحدود ، وكان سعادة المدير العام الفريق عبد الله بن عبد الرحمن آل الشيخ - كعادته في الدوام المبكر - قد جلس في مكتبه ، ولما سلمت عليه بدا لي أنه لا يعرفني ! فسألته عما إذا كان يذكرني أم لا ، فقال : أعتقد أننا قد اشتغلنا سوى !

كانت دراستنا سنة ٨٤ - ١٣٨٥ هـ أي قبل أكثر من عشر سنوات ، وكنت برتبة نقيب وكان برتبة مقدم ، والآن أنا برتبة مقدم وهو برتبة فريق ، فالبون شاسع ولا بد من كلفة الرئاسة ، والفريق عبد الله من الرجال شديدي الاخلاص ومن أسرة آل الشيخ العريقة ذات المجد المؤثل ، وبعد واجب التحيات عرفت من سعادته أنه لم يتم تعييني بعده .

البحث عن الاصدقاء

لي في الرياض أخوة أصدقاء ، وكان عليّ الاتصال بهم بأسرع

فرصة ، فتوجهت من سلاح الحدود إلى وزارة العمل حيث زرت الأخ
عبد الله بن محمد بن ردا س العلوي^(١) الحربي، وما أن رأني حتى رحب
وسهل وهش وبش ، والصديق أبو محمد من الرجال الذين لا تمل
حديثهم ولا تثقل عليك مجالستهم ، وهو شاعر وكاتب ومحدث لبق
قوي الحجة ، من مؤلفاته « شاعرات من البادية » مطبوع في جزئين •
وهو من المتحمسين للعرق العربي ، وحديثه عن الأدب العربي لا ينقطع
ويحفظ الجزل منه كمطلع لامية العرب للشنفرى، وطاوي ثلاث للحطيئة •

ويرد في حجة لعدم التكافؤ :

وأول احساني إليكم تخيري لطيبة الأعراق باد حصانها

عبد الرحيم بن مطلق الاحمدي

ومن عند ابن ردا س اتصلنا هاتفياً بالصديق عبد الرحيم الأحمدي
في الدرعية^(٢) فلم يكن موجوداً فتركنا له رسالة هاتفية فيها اسم الفندق
ورقم الغرفة ، والصديق الأحمدي مدير مركز التنمية بالدرعية شاب
أديب لطيف محبوب يسرّع إليك اذا هتفت له ولا يثنيه عنك ثمان ،
ووجدت نفسي مسروراً أن يكون لي هذا النوع من الأصدقاء ؛ ولالأخ
الأحمدي ولع بالتراث الشعبي ، وهو يعد كتاباً في هذا الموضوع من
الأدب الشعبي ، وله قصائد شعبية وفصحى^(٣) وله مقالات في الصحف •

في ضيافة أبي محمد وجولة في البحر الأحمر ومشاهدة مظاهر الشراء الهائل:

دعاني أخي أبو محمد الى تناول طعام العشاء في داره ، ولما أتني
أعرف كرمه فقد أقسمت عليه ألا^٣ يذبح، كعادتنا في اكرام الضيف، ذلك أتني

(١) و (٢) ترجمت لهما في « نسب حرب » •
(٣) نشرت بعضها في « الأدب الشعبي في الحجاز » •

لا أرى لمثل هذه المظاهر لازماً • وجاء الى الفندق ليصحبني الى البيت • وسألته عن الشيخ حمد الجاسر^(١) الذي خرج من بيروت خلال حوادث عام ١٣٩٥ هـ وبالتحديد قبل شهر الحج ثم انقطعت أخباره عني وتوقفت مجلة « العرب » عن الصدور ، فلم أجد عنده خبراً غير أنه اقترح أن نذهب للبحث عن سليمان الجاسر صهر حمد على ابنته «مي» فكان أن قمنا بجولة في (البحر الأحمر^(٢)) فلم نهتد إليه فأردنا أن نستعين بصاحب مكتب عقاري يعرفه ابن رداً •

أرخاء ذا أم عمت البلواء !؟

دخلنا ذلك المكتب الذي يديره تقيضان : شاب جامعي ورجل أمي، وكان الأمي أنجح وأحذق في جمع المال! وبعد الترحيب والحديث المسهب عن المساهمات والترغيب فيها ، لاحظت على مائدة غير بعيد رزماً من الأوراق ماشكت أنها مطبوعات وخرج كل أصحاب المكتب وعادوا في حركة دائبة ، فاذا بأحدهم يحضر زنبيلاً فيتناول تلك الرزم ويكفها رزمة بعد أخرى وكيفما اتفق في زنبيل أسود ، فاذا هي تقود من ذوات المائة ريال ، ثم فتح باباً فقذف بها بلا عناية ولا أدنى اهتمام ! لقد هانت الثروة بعد أن انهالت على الناس هنا ، فهؤلاء كان أحدهم يفتش جيبه عشر مرات في النهار ! وكان اذا ملك مائة ريال يدسها حتى عن أقرب الناس إليه ، ولكنها بلية التضخم المالي ، ففي زيارة لصديق في بيته كانت ربطات هائلة من ذوات المائة على منضدة في المجلس لا يهتم أحدها •

والحديث هنا عن الأرض والمساهمات : فلان باع أرضاً بخمسة ملايين ! وذاك لحقه ثمن أتعاب من المساهمة الفلانية نصف مليون ! كدت — ورب الكعبة — أفقد صوابي وأزهد في رزقي ! فأنا لم أقبض يوماً مبلغ خمسين ألف ريال دفعة واحدة فإذا أنا أمام قوم ليس لهم

(١) ترجمت له في « نسب حرب » •

(٢) أحد أحياء الرياض •

حديث غير الملايين، ومهما فتحت باباً للحديث في الشؤون العامة أو الدين أو الأدب لا تكاد تتمه حتى تسمع من يقول : الأرض التي في مكان كذا بكم انباعت ؟ بمليونين ! بس ؟ يا خسارة ليتني دريت ! ثم تنظر إلى هذا المتكلم فإذا هو موظف بسيط أو منكلخ بالأمس من البادية أو القرية ، فتحماد تصرخ في وجهه : (من أين لك هذا) ؟

قال موظف كبير : كان عندي فراش منح قطعة أرض باعها بنصف مليون ٥٥ . قلت : بنصف مليون ؟ ! قال : إناك عجول ! لم أتم كلامي ، اشترى بنصف المليون أرضاً كبيرة باع منها بمليون ريال ! فاشترى سيارة بضعف ثمن سيارتي ، وبنى فلة لن أبنيتها ولو صرت وزيراً ثم أثمها بمبلغ « ٦٥ » ألفاً ! ثم استقال !

في هذا الخضم الغريب أو التنافس المسعور على الثروة المتدفقة نسينا شيخنا والسؤال عنه ! وبعد لأي حدثت أبا محمد الذي كان يعرض أرضاً له للبيع ويمدح موقعها ، ونبهته لما جئنا من أجله ، فسأل أحدهم ، فقال المسؤول : العلامة حمد الجاسر ؟ قلنا : نعم . قال : لا أعلم عنه ولا أعرف بيت صهره .

ناهض الناهض (١)

خرجنا من ذلك المكتب المكتظ بالثروة وطلابها والذين كادوا يدخلوني في عداد المساهمين حيث قال أحدهم : لو دفعت يا أستاذ خمسين ألف بس ، يمكن أن تعود عليك بربع مليون ! قلت في نفسي : ومن أين يا حسرة الخمسين ! لو كنت من أهل مثل هذه الدخول لكان أول عمل أقوم به التفرغ للأدب وطبع مؤلفاتي التي تئن في أدراج مكتبي .

وبعد قليل كنا أمام دار الشيخ ناهض الناهض أحد موظفي

(١) ترجمت له في « نسب حرب » .

الحكومة السابقين شيخ كثير الترحيب حسن المحادثة حول الحديث إلى
الأدب فشعرت بارتفاع المعنوية ، واعتذر مني أنه على سفر الى مزرعته
في قريتهم باقليم السرين القصيم والوشم .

وحدثنا الناهض عن ديوان الحطيئة واعجابه بشعره ، ورجاني
أن أحقق الأماكن الواردة فيه ، فوعده اذا أمد الله في عمري وتفرغت
أو تقاعدت ا

وهنا سمعنا ابن رداص قصيدة الحطيئة في الكرم « وطاوي
ثلاث » .

وعدنا الى موضوعنا فأخبرنا ناهض بأن الشيخ حمد أخذ بناته
— بعد وفاة ابنه محمد — وزوجه وسافر الى أمريكا قبل نصف شهر ،
وسيبقى ثلاثة أشهر^(١) . ودعنا ناهضا ثم عدنا الى بيت أبي محمد حيث
كان العشاء في انتظارنا ، وبعد ذلك عدت الى النزل فوجدت تذكرة من
الصديق عبد الرحيم بأنه جاء فلم يجدني .

٢٧ منه كان اليوم هو الاثنين

بكرت في جولة على الرياض الجنوبي : العود ومنفوحة
والصاحبة .

ثم زرت صديقي الحميم عبد الرحيم الأحمدي في مقره بالدرعية .
ومن عنده اتصلنا بصديق صدوق هو الدكتور منصور الحازمي
فلم تقدر على ذلك ، ففوضت الأخ الأحمدي بالاتصال به وتحديد موعد
للزيارة ، والأحمدي رحيم الحازمي ذاك أن زوجة عبد الرحيم بنت أخي
منصور الحازمي .

(١) ولكن الشيخ حمدا لم يعد أو لم تصلني أخباره حتى بعد ستة أشهر
من ذلك التاريخ ، أي عند ارسال هذه الرحلة الى ادارة المطبوعات ، ثم عاد
بعد ذلك .

عبد الله بن محمد بن خميس :

الشيخ عبد الله المشهور بابن خميس شاعر نجد - اليوم -
وأديبها ومؤرخها وعلى ما قال المصريون : « بتاع كله » !

اعتزل الرياض وسكن منزلاً في وادي حنيفة بين الدرعية والعينية،
وبعيداً عن كل منهما، وكنت اتصلت به على جميع الهواتف المسجلة باسمه في
دليل الهاتف الآلي ، والغريب أن بعض من كلموني لا يعرفون ابن
خميس ! فهم مستأجرون ، وهذه اليوم مشكلتنا مع معظم من نريد
الاتصال بهم على دليل الهاتف •

ولكن الأحمدي يعرف بيت صديقنا ، فسرنا بعد عصر هذا اليوم
زائرين مسلمين •

فخرجنا الى طريق الرياض - القصيم ، ثم سرنا مشملين ثم فرق
الطريق يساراً فهبطنا الوادي فوجدنا دار مزورنا على ضفته الغربية ،
فقليل لنا : إنه قد خرج فكتبنا له رسالة تنبئ بالحاصل وعدنا ، وبعد
أيام تبلغت تحيات ابن خميس بواسطة الأحمدي •

الثلاثاء ٢٨ منه :

بكرت الى مديرية سلاح الحدود ثم عدت فقامت بجولة في المقبرة
سوق اللحوم والخضار الرئيسي في الرياض ، وأمام أحد الجزارين
سمعت أحدهم يقول له : بعشرين ؟ !

قال الجزار : يا عمي هو أحد لاقى لحم بعشرين والا بأكثر ؟ !
قال الزبون : الدجاجة أم كيلو بسبعة ريال • قال الجزار في

غيظ : أيوه انبسطوا ما دام الطائرات تكرر عليكم من الدجاج اللي
ما تدرون كيف يذبح !

والبنذورة بعد أن كان السطل منها بنصف ريال سمعت من يقول:
الكيلو بثلاثة ريالات • وقصارى القول فان الغلاء هنا يكاد يسير في
عروق الناس كسريان التيار ، الكل يريد أن يجمع الثروة بأية طريق ،
وقد تكون بعض الحاجيات قد ارتفعت في مصادرها ، غير أن الغلاء
بهذه الصورة فيه الكثير من الافتعال وسلوك أي طريق يوصل الى باب
الثراء •

الأحمدي مرة أخرى

كان لسان حال الأحمدي معي في هذه الرحلة كالقائل : « يامرحبا
يا ضيفنا كل ساعة » • فبعد عصر هذا اليوم قمت بزيارة له ، ومن ثم
تم الاتصال بالدكتور منصور فحدد لنا ليلة القابلة لزيارته في منزله
بالبحر الأحمر •

يوم الاربعاء ٢٩ محرم ١٣٩٦ هـ

جاءني الأخ عبد الرحيم بعيد المغرب ثم ذهبنا إلى الدكتور
منصور الحازمي في بيته ، كان معظم الحديث عن الأدب وأخبار
المؤلفات والطبع ، والدكتور منصور من أدبائنا البارزين وعמיד كلية
الآداب بجامعة الرياض ، له مؤلفات ومشاركات جيدة ، معني بدراسة
الرواية في الأدب العربي^(١) ، وأبى كرمه العربي الا أن يأخذ منا موعداً
لتناول طعام العشاء بداره ، ولم تجد محاولات الاعتذار فاشتربنا عدم
التكلف بذلك ولم يف ، وتقرر الموعد ليلة الجمعة المقبلة •

(١) ترجمت له في « نسب حرب » •

وأثناء خروجنا تكرم الأخ الأحمدى فوافق على أن يرافقني
— بصفته خير في هذه الديار — في رحلة يوم الجمعة المقبل إلى العيينة
وسدوس وحريملاء •

ثم دعاني لتناول الغذاء غداً عنده على شرف صديق له •

تناولنا طعام الغذاء عند الأخ عبد الرحيم الأحمدى على شرف
صديقه ، وحضر بعض الشباب ، وكانت مناقشة سلبية عن الأدب ثم
موضوع شعر عمر ابن أبي ربيعة واسلوبه ، وعلقت على قصيدة من
الشعر الحر أو النثر الشعري كما نسميه للاستاذ الأحمدى نشرها في
الجزيرة ، وشكا الأحمدى أن مصححي الصحف يقطعون المقال ويغيرون
العنوان من عندهم •

والحقيقة المرة أن هذا هو الذي أبعد الكثيرين من الكتاب عن
مجال الصحافة ، فلا تكاد ترسل مقالاً حتى يبدأ المصحح بمشرطه
يستأصل اللباب وعصارة الفكر وينشر القشور • فيحسب هذا على
الكاتب •

ومن لطيف أو غريب ذلك أنني أرسلت مقالاً لاهدى هذه
الوسائل النثرية فجعلت له عنواناً ساخراً هو « ما خلقنا الا في نعمة »
فغيره المصحح « لنرعى النعمة » ونسي أن حرف العلة يجب أن يحذف
في مثل هذا ! وحسبت عليّ هذه الغلطة ، وحكى لي أحدهم قال :
كنت مصححاً في جريدة كذا ، فكنت لجهلي أحذف عبارات كلمة كيفما
اتفق ، فلما فهمت معنى الأدب ضحكت على نفسي ، فقد كنت أحذف
ما يصلح للنشر وأنشر عكسه !

وبعد الغذاء قمنا برحلة قصيرة خفيفة استطلاعية إلى وادي

عقرباء والجبيلة حيث دارت رحى الحرب بين المسلمين وبين جنود
مسيلة الكذاب في حروب الردة .

ثم عدت الى الفندق ، وبعد المغرب جاءني الأحمدى عند ابن
رداس حيث تواعدنا هناك ، ثم ذهبنا الثلاثة إلى منزل الدكتور منصور
الحازمي .

حفلة الصفاة

دخلنا منزل الدكتور وكأنا بكرنا وكان عنده الاستاذ منصور
الخريجي أحد موظفي الديوان الملكي العامر .

وبعد قليل حضر الدكاترة : أحمد محمد الضبيب ، وعبد الرحمن
الأنصاري ، ومحمد الشامخ ، واخوة كرام آخرون . ثم حضر الدكتور
عبد الله النافع وكيل جامعة الرياض ، وكل هؤلاء الدكاترة من منسوبي
جامعة الرياض .

واذا اجتمع قوم على أي مستوى تحدثوا ، وتشعب الحديث ،
وكل يجره الى ما يهمه ، وكان حديث القوم متشعباً فعلاً وكانت الأراضي
ويبعها والعمار وأسعاره والبيوت الجاهزة تستحوذ على جادة الحديث ،
وقد ثبت لي بالدليل القاطع أنني أجهل هذه الأمور ! وكنا نجر الحديث
الى الأدب فيتله هذا أو ذاك ليربطه بأنفه في حضيرة تلك المغريات أو قل
شؤون الساعة ، ومن سمات الحاضرين كانت : السكوت التام سمة
الدكتور عبد الله النافع ، وكأنه يمثل القول : «فم مغلق ومكتب مقفل» !
وكان المرح البهيج والدم الخفيف سمة الدكتور الضبيب ، بينما كانت
الثروة والحديث الذي لا ينقطع سمة ضيف الشرف وكاتب هذه

السطور. أما عبد الرحمن الأنصاري فكان عالم الآثار ، وأعترف أنه أول من أخرجني في الاستنتاج فكانت تجاربه وسعة اطلاعه ما اصطدمت به في الحديث عن الآثار حول تبوك والرس والتفريق بين تبوك والطبق في الاحرف اللاتينية ، وانشغل الدكتور الحازمي بالاعداد والتجهيز .

وبالتالي كانت سهرة صفوة فكر الرياض امتدت حتى قرب الثانية عشرة ليلاً ، وفي الخارج رجاني الدكتور الصديق عبد الله النافع أن أعطيه موعداً لتناول طعام العشاء بداره ، ولكنني اعتذرت . والعذر عند كرام القوم مقبول . وكان تفضله بقبول اعتذاري كرمأً أدين به له ، ذلك انني كنت مشغول الفكر أستعد للرحيل في أقرب فرصة . والدكتور عبد الله النافع من الرجال العصامين وصل الى هذه المرتبة بجده وسعيه بعد توفيق الله ، وهو من قبيلة حرب ، وكنت أرسلت له أطلب ترجمته عند تأليف كتابي نسب حرب ، ولم تصلني منه ترجمة ، وعلمت في هذه الليلة أنه قد أرسلها فلم تصلني ولما أن الكتاب هو الآن في احدى مطابع بيروت مما يقرب من سنة فقد تعذر الحاق الترجمة .

العَيْنة وسُدُوس ومُرمِلد

عَقْرَاءُ وَالْجُبَيْلَة

حضرت الى منزل الصديق عبد الرحيم الأحمدي في التاسعة صباحاً من يوم الجمعة ، فخرجنا من الدرعية على طريق الرياض — القصيم ، ثم فرقنا يساراً ، وعلى (٢٥) كيلاً من الدرعية وصلنا وادي عقرباء ، واد ليس كبيراً يأتي من الشرق فيدفع غرباً في وادي حنيقة ، عنده حدثت المعارك الدامية بين جنود الاسلام ومرتبدي بني حنيقة بقيادة مسيلمة الكذاب ، في أول خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه .

وبأسفل عقرباء حديقة نخل يخيل إلى الرائي العريق في البحث أنها الحديقة التي قتل فيها مسيلمة ، ولا تبعد قبور الشهداء عنها سوى كيلين مما يدل على أن المعركة من تلك القبور الى هذه الحديقة وما حولها .

عقرباء في التاريخ

وفد بنو حنيفة من أهل اليمامة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة ، وكان فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وقيل أنه لم يقابل رسول الله ، ولم يسلم عليه وهو - لا شك - بسبب كفر قد خامر عقله ، ولما رجع أرسل رسالة الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فيها بأنه نبي مثله ويتهم قريشاً بالظلم ، فرد عليه النبي باسم « مسيلمة الكذاب » فصار من يومها علماً عليه .

ولما مات صلى الله عليه وسلم انقادت بنو حنيفة لمسيلمة فارتدت الا من ثبت مع ثمامة بن أثال الحنفي الذي انضم إلى جيش المسلمين . وتقدمت جيوش الاسلام وعددها بضعة عشر ألفاً فتوافقت مع بني حنيفة وعددهم يقرب من أربعين ألفاً في أسفل وادي عقرباء إلى بلدة الجبيلة اليوم .

قال الجاسر في « مدينة الرياض عبر اطوار التاريخ » :

ولما بلغ خالد بجيشه ثنية الأحيسي^(١) وجد مجاعة بن مرارة مع ثلاثة وعشرين فارساً من قومه ، نياماً وأرسان خيلهم في أيديهم تحت خلودهم^(٢) وقد قتلوا جميعاً إلا مجاعة وخرج مسيلمة الكذاب ببني

(١) تعرف اليوم بالحيسيات وهي صدر وادي حنيفة .

(٢) ص ٥٤ .

حنيفة فنزل « عقرباء » ثم وقعت بين الجيشين معارك في أعلى وادي
أباض ، وفي أسفله^(١) .

وكانت وقعة عقرباء بجوار الجبيلة هي الوقعة الفاصلة ، ففيها
اقتصر المسلمون وهزم أعداؤهم بعد معركة من أعنف المعارك قتل فيها
مسيلمة « الكذاب » وأربعة عشر ألفاً من أتباعه ، سبعة آلاف في
الفضاء خارج عقرباء ، وسبعة آلاف في الحديقة وقيل : بل ٢٤ ألفاً ،
وقيل : عشرة . وأستشهد في عقرباء ألف ومئتا شهيد من المسلمين ،
منهم زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنهما .

ويذكر بعض الباحثين أن عقرباء كانت تشمل الناحية وأن الجبيلة
كانت محلة من محلات عقرباء . أما اليوم فالاسم لواد كما تقدم .

وكانت تلك الحديقة في عقرباء تعرف بحديقة الرحمن نسبة إلى
رحمان اليمامة وهو اسم أطلق على مسيلمة الكذاب . ثم سميت حديقة
الموت بعد ما قتل فيها يوم الحديقة .

ثم صالح خالد مجاعة على بقية « حَجَر » في أخبار طويلة ، ثم
تزوج خالد ابنة مجاعة فعنفه الخليفة على ذلك ، لأنه كان يريد من القائد
أن يتفرغ لأعمال الجهاد وقاتل عدوه .

الجبيلة

بليدة صغيرة متأخرة كثيراً على ضفة وادي حنيفة الشرقية ، بينها
وبين عقرباء ثلاثة أكيال ، وبطرفها من الجنوب قبور الشهداء معروفة ،
ومنها هبطنا وادي حنيفة الذي خرجنا منه من الدرعية ، وكأنا ضربنا

(١) المرجع السابق والتفاصيل واسعة في الصفحات من ٤٥ إلى ٦٠

حوله قوساً على ضفته الشرقية ، وقد تقدم معنا أن الجبيلة كانت من عقرباء فلما تأخرت بلدة عقرباء واندثرت صارت الجبيلة بلدة مستقلة ، فيها مدرسة ومسجد ، ويوتها من اللبن القديم •

العَيْنَةُ

ثم واصلنا سيرنا على وادي حنيفة صعوداً ، وعلى سبعة أكيال من الجبيلة وصلنا بلدة العينة ذات التأريخ المرتبط بالدعوة ، وهي بلدة في صدر وادي حنيفة بيوتها من اللبن ولم يطرأ عليها كثير تغيير ، فيها مدارس ومساجد ، وأهلها متمسكون بالعقيدة المتينة ، تقرأ أسماء أهل كل حي في مسجده صباحاً ، ومن لم يحضر الصلاة بلا عذر شرعي ينكل وهذه سمة جميع مدن نجد عدا الرياض ، وهي لعمرى سنة طيبة بهذا المحافظة عليها ، ولكن الشباب غلاب ، والشباب لا يريد هذه العادات التي صرح لي بعضهم أنهم يستهجنونها : وبهم الهجنة . وإذا كان هناك من عاداتنا ما يستوجب الطرح فليست العادات الدينية من الوارد في هذا الحساب ، وأي قوم ليست لهم عقيدة متينة ليست لهم روح ولا قاعدة متينة يننون عليها ، وتأدية الصلاة من أقوى قواعد العقيدة وألزم أركان الإسلام •

الحِيسِيَّات

ثم خرجنا بعد خمسة أكيال من العينة وأربعين من الدرعية في متسع تأتبه شعاب من عدة جهات كثير شجر الطلع ، هذا يسمى الحيسيات ، وهو صدر وادي حنيفة ومجمع نواشعة العلى . وكان الاسم لثنية — كما تقدم — ثم أطلق على الناحية وهي عادة عند العرب — إطلاق اسم الجزء على الكل وقد يحدث عكس ذلك — وثنية الأحيسي تعرف اليوم بالملفات أو السبعة الملفات يأخذها الطريق بعد الحيسيات •

سرنا في الحيسيات ثم خرجنا في حزم فهبطنا على بلدة سدوس على « ٦٠ » كيلاً من الدرعية ، بلدة زراعية ذات نخل في واد يتجه من يسارنا إلى يميننا ، وفي البلدة أمارة سدوس ومدارس وعمرانها ليس متقدماً كثيراً ، ولا زال سيرنا في اتجاه الشمال الشرقي عن الرياض مع ميل تدريجي الى الشرق كلما أمعنا في السير .

وفي سدوس توقف الطريق المزقت ، وكاد أن يقف حمار الشيخ في العقبة . غير أن أهلها شجعونا بأن الطريق إلى حريملاء ليس صعباً .

خرجنا من سدوس على طريق ترابية باتجاه الشرق فصعدنا حزمًا فعلواناه فأخطأنا الدرب المناسب ، وكنا على « ١٣ » كيلاً من سدوس نكاد نهوي في منحدر كان طريقاً فهجر فخربته السيول ، وجانبه المنحدر أو المنكدر يذهب الى وادي حريملاء ، فعدلنا سيرنا الى الغرب على ظهر مستو من ذلك الحزم أو الجبل كما يسمونه هناك ، ثم عطفنا إلى الشمال فالشرق مع طريق أيسر كثيراً من سابقتها ، وعلى « ٢٦ » كيلاً من سدوس هبطنا وادي حريملاء . ولا شك أن سدوس منسوبة إلى بني سدوس بن شيبان بطن من بكر بن وائل . كانت منازلهم اليمامة ، وكانوا أرداف ملوك كندة ، كانت لهم القرية — بالتصغير ، ومأوان ، ذكرهم الحطيئة^(١) .

(١) الحطيئة : جرول بن أوس بن جؤبة بن مخزوم بن مالك بن غالية العبسي الغطفاني . كنيته « أبو مليكة » وهي ابنته . شاعر هجاء مداح ، دميم الخلق سيء الخلق . أسلم فارتد وحرّض المرتدين وهجا أبا بكر رضي الله عنه ، ثم عاد إلى الاسلام بعودة المرتدين . منعه عمر عن الهجاء وسجّنة . ديوانه مطبوع . انظر ص ١٤ تحقيق نعمان أمين طه .

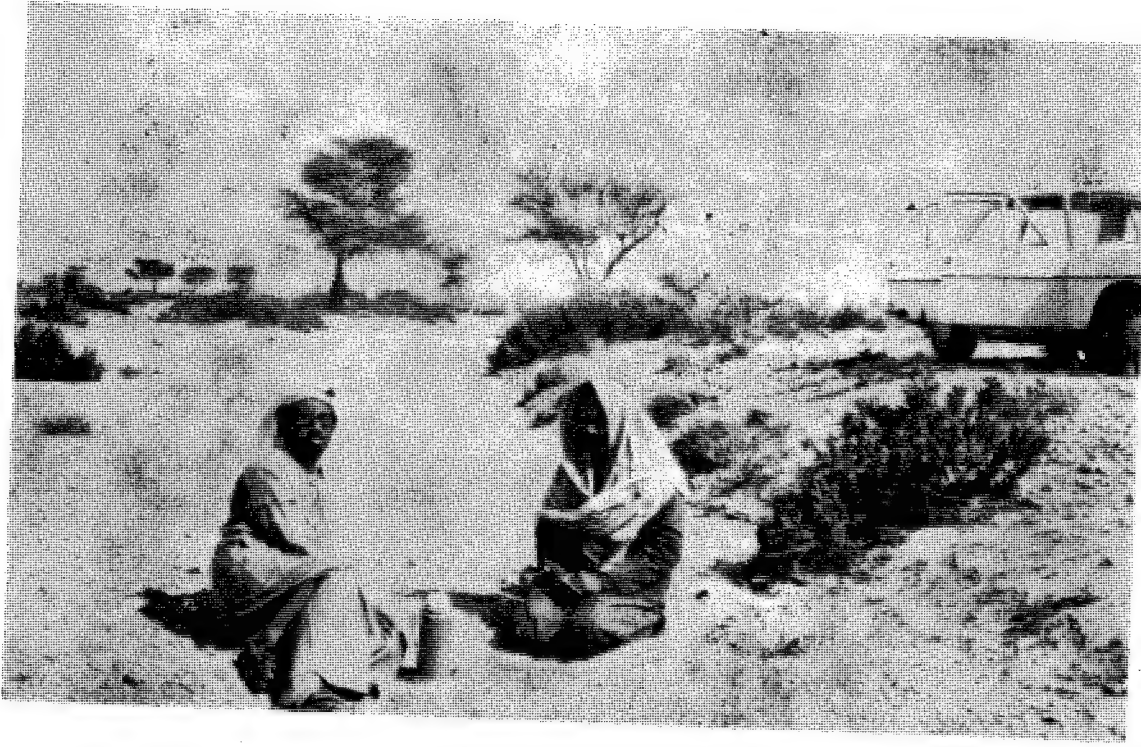
حريملاء

وما أن نزلنا وادي حريملاء حتى كنا قد لقينا من سفرنا نصباً ،
فهزعنا إلى جانب السد « سد وادي حريملاء » فجلسنا على بطحاء نظيفة
وحضّرنا كوين من الشاي اللبّن ، وهنا تفضل الأخ الأحمدى فركز
مصورته الموقوتة فأخذ لنا رسماً أرسل لي فيما بعد نسخة منه فلما
رأيت ورأيت ذلك الطلح الذي قضيت فيه سويّعات ممتعة برفقة عبد
الرحيم هاجت الذكريات فأردت أن أذكر حريملاء بما تستحق ولو بيت
قد لا يرقى إلى جمال حريملاء الخضراء جارة الوادي ، فأخذت القلم
وكتبت لعبد الرحيم :

لقد هاج أشجاني وماكنت شاعراً تذكر طلحات على سد حرمل (١)
برفقة خل صادق الود ماجد به تقصر الأيام لو كنّ طوّلاً
رأيت هذاك الرسم فاذكرت رحلة إلى نجد بين النخيل والتل والفلا
ألا عدن لكن في ربوع تهامة بمكة أوامر إلى الفرع فالعلا
مربع لا نسلوها لو بدلت لنا بعوطة جلقّ أو على النيل منزلاً

وتقع حريملاء على « ١٠٧ » أكيال شمال شرقي الرياض ، في واد
فحل كثير الشجر عليه سد لحفظ سيوله ، فأرجعت بعده أرض حريملاء
وهي مدينة متقدمة نوعاً وال عمران الحديث منتشر فيها ولها شوارع
مبدوء باصلاحها ، وسوف تشهد نهضة مباركة .

(١) حريملاء .



عائق وعبد الرحيم في وادي حريملاء

لقد كانت الرحلة شاقة ولم تهونها الا روح عبد الرحيم المرحه
الدائم الابتسامه ، وما أجمل الابتسامه اذا كانت نابعة من أعماق الروح
الصافية ، فهي تظهر وكأنها تريك تلك الروح حاملتها بين يديها بيضاء
شفافة نقيه ، ولا شك أن روح الأحدي هي في هذه الصورة فهو
لا يتضجر ولا يعبس ولا يعرف الكلل •

*

*

*

القرينة

وصلنا حريملاء والناس يخرجون من صلاة الجمعة فواصلنا سيرنا فعاد بنا الطريق باتجاه الشرق ، وبعد خمسة أكيال وصلنا مكان على طريق القصيم إلى الرياض يسمى «القرينة»^(١) بالتصغير ، فيه مقهى جلسنا فيه فطلبنا ما عنده من غذاء فجاء بما نسميه « كبسة دجاج » وهي طبخ الرز مع الدجاج ، فتغدينا وتحركنا عائدين إلى الدرعية على هذا الطريق ، فوصلنا بعيد العصر حيث نزل الأحمدى وواصلت سيري الى الرياض .

صَبَابُوح

بلدة صغيرة تقع شمال الرياض على « ٤٥ » كيلاً ، وفي أوراقي — وأنا أبيض هذه الرحلة انها بعد القرينة بثلاثة وعشرين كيلاً ، غير أنني لا أذكر أننا مررنا بها — وهي ناحية عن الطريق العامة ولها طريق معبدة .

عدت الى الفندق فوجدت ورقة من الصديق ابن رداًس يقول : حضرت فلم أجده ، افتقدناك ! وبعد المغرب كنت عند أبي محمد في البحر الأحمر « ابن رداًس » فوجدت عنده نفر من أصدقائه عرفت منهم أن معظم نجد قد هطلت عليه أمطار محيية ، وأبي كرم أبي محمد إلا

(١) جاء في معجم البلدان أنها روضة بالصمان ، وقيل واد . قال : جرى البرمت في وادي القرينة والسدر .
وانشد أبو زياد لمعاذ :

ودار بالشميظ فحياما
ودار بالقرينة فاسالاما

أن أتعشى معه ، ثم عدت الى الفندق فوجدت ورقة تحت توقيع الأخ الكريم ناصر العلي يقول : علمت بطريق الصدفة بوجودك وترددت على الفندق فلم أجذك ، لا بد من موعد لتشريفي ، اذا غادرت الفندق اترك خبراً عند الاستعلامات •

وتذكرت واستعرضت أسماء أصدقائي فلم أذكر هذا الاسم من بينهم ، وعدت أقرأ الورقة فاذا أسمى الكامل مكتوب فيها ، فاذا ليس الأمر غلطاً أبداً •

سرفت هذا الأمر من ذهني وتقدمت الى التلفزيون الموضوع في غرفتي والذي لم أفتحه طيلة هذه المدة فأدرت مفتاحه فرفض ! فتناولت بعض الأوراق فكتبت بعض الخواطر أرسلتها في اليوم التالي إلى جريدة الجزيرة ، ولم أعلم حتى الآن أنشرت أم لا ، ذلك أنه لا تتاح لي قراءة جرائدنا كثيراً فأنا في جيزان أو تبوك أو رابغ الخ وهي قرى لا يصلها التوزيع الا متقطعاً ، ولذا فاني كثيراً ما تفوتني انتاجات وأخبار مهمة •

السبت ١٣٩٦/٢/٢ هـ

صدر اليوم أمر تعييني ، وبعد العصر كنت عند ابن رداس فاقترح علي أن نزور الأخ النقيب حماد حميد الصاعدي مدير التموين بأحد فروع الأمن العام ، وهو شاب خلوق ودود يخجل بكثرة ترحيبه ، وأقسم وأعتذر مراراً أنه لم يعلم عن وصولي الى الرياض ، ثم أصر اصراراً لا يقبل العذر أن يكون عشاءنا عنده الليلة القابلة • وفي عودتنا قمنا بزيارة الأخ عبد الله الزيد العلوي الحربي ، وهو شاب يغريك كلامه قبل طعامه ، يلقاك بالبشر ويودعك بأعذب الألفاظ ، وقد أخذني أحد الأيام في تجوال في الرياض ، قال - جزاه الله خيراً - أنه يتبرع بمبلغ

ثلاثين ألفاً قرصاً بلا فائدة لمدة سنة مساهمة منه في طبع كتابي « معجم معالم الحجاز » فشكرته وأخبرته أن الكتاب يحتاج إلى ثلاثينات •

الاحد / ٣ / ٢ / ١٣٩٦ هـ •

لم يكن عندي هذا اليوم ما أعمله تقريباً فعدت بعد الافطار في مطعم اليمامة إلى الفندق وأنا أكاد أتميز غيظاً ذلك أن الخادم الفلسطيني البدين المتين تعود - إذا طلبت كبداً - أن يمزجها بالكي والقلوب لأنها أرخص تكلفة مع أن المكتوب في قائمة الطعام ومصادق عليه من الجهات المسؤولة هو « صحن الكبدة ٣ ريال » وفي هذا اليوم قلت له : (أرجوك كبدة بدون كلاوي ولا قلوب) فقال - بلهجة الزاجر - : ما فيه كبدة بلا كلاوي ! واشتد النزاع فذهب يأتي لي بمدير المطعم الذي قال : يا أخي الكبدة لحالها - صرفة - ماتخرجنا •

قلت : ولكنكم عندما تقدمون هذه القائمة والتسعيرة فيصادق عليها لا تقولون هذا الكلام ؟

قال : ما يوافقون !

وأصر القوم على أن لا كبداً بلا كي وقلوب وربما شغت لحم وخصى الخ • فطلبت متبلاً ، قال ذلك العتل - بغضب - : ما فيه متبل ، فيه حمص •

المهم انني عدت فاستلقيت على السرير فاذا بالباب يقرع ففتحت فاذا بناصر العلي ، وعرفته ، كانت صلتي به تعود إلى سنة ١٣٧٤ هـ وكنت بالطائف أتردد على مقهى باليمانية وكان لي صديق وشمي يسمى سليمان الدريعان فعرفني على ناصر علي حجازي ، قبل أن يصبح « ناصر العلي » ! كان شاباً يماثلنا في السن بين العشرين والثانية والعشرين من

عمره ، وكان صاحب كشك قرب رغدان^(١) ويدرس في المدرسة الليلية ، ثم انقطعت أخباره غني إلى سنة ١٣٨٤ هـ وقد قابلته في الرياض حيث أصبح تاجراً صغيراً ، وقمنا خلال تلك المدة بنزهات إلى هيت وحائر سَبَّيع وبَنَبَان وآم الحمام وغيرها^(٢) .

وقد أصبح اليوم ذا أموال طائلة وثقافة واسعة ، فقال : لقد أعددت كل شيء ، والعشاء عندي الليلة ، ييتي بمنفوحة ، وكعادي حاولت الاعتذار ولكنه أصر ، فقلت إذا القابلة ، وهكذا صار .

وفي المساء اجتمعنا أنا وابن رداص والأحمدي فذهبنا إلى بيت حماد الصاعدي ، وكان عنده جمع من الشباب ، ودارت مناقشات كالمناقشات السائدة اليوم في الرياض : الأراضي ، زواج القبيلي من الخضرية والعكس ، والنس الذين كانوا فقراء فأغناهم الله من فضله . غير أن أبا محمد دائماً يطعم مناقشاته براويع من الأدب كبيت شعر أو قصة صغيرة .

وبعد العشاء نظر إليّ الأخ الأحمدي قائلاً : تستغيث يا أخ عاتق ؟! فنظرت إلى حواشي المشلح فإذا أنا قد لبسته مقلوباً ! فقلت هذه بشارة لي بأني دخلت عالم الفكر ! فما ذكر عن صعلوك أو عامي أن الغفلة تبلغ به هذا ، ولكن ذكر أكثر من هذا عن المفكرين ! فهذا الخليل ، ابن أحمد الفراهيدي يصطدم بإحدى أساطين المسجد فيقضي نجه ، وهذا مفكر غربي يطرق بابه فتقول له خادمته : سيدي ليس موجوداً . فيدير قائلاً : حسناً سأعود متى جاء !

وعلى العموم لفتة الأحمدي لي لفتة غير العاذر إذ قالها بصوت مسموع لافتاً نظر الجميع .

(١) رغدان : قصر للأشراف على مدخل الطائف من جهة نجد .

(٢) أماكن من ضواحي الرياض .

الاثنين ١٣٩٦/٢/٤ هـ

قمت صباحاً بزيارة زميلين في الضيافة العسكرية ، وبعد المغرب حضر مندوب من الأخ ناصر العلي فأخذني إلى منزله ، وهناك كان جمع بسيط مثقف حسبت أحدهم من الصحفيين ومع أنني كنت معنياً في هذا الجمع الذي تغلب عليه الطباع الغريبة وتقلد السلاسل وإطالة السوالف بعدم الكلام ، إلا أن العلي - حفظه الله - قدمني لهذا الخليط ككاتب عدد من مزاياه ما لم أحلم به بعد عشرين سنة ، فثارت المناقشة حول التراث والأدب المستورد والتقاليد والعادات ، ولفت نظري ظاهرتان تزعمهما شابان جامعيان : الأولى - تقول : إن التراث طعام العجزة وان علينا أن نبحث عن العلم الحديث لننتقدم مع الأمم المتقدمة . فقلت له : ومن قال لك أن التراث الاسلامي يتعارض مع العلم الحديث ، ان تراثنا هو الأساس والأساس المتين يمكنك أن تبني عليه أي بناء من أي نوع ، وأن الذين يستوردون تلك العلوم بلا أساس متين من تراثهم الاسلامي الخالد كمن يبني فوق الرمال . ليس هذا كل ما قيل انما خلاصته .

والأخرى عندما التفت إلى شاب حسن المظهر جميل الحيا وقال : طالما تحدثتم عن التراث وجعلتم العقيدة الاسلامية أساسه وما وافقها يتمسك به وما نافاها يهمل فهل في هذا التراث وهذه العقيدة الا يتزواج القبيلي مع الخضيرى ؟

كانت مشكلة حقاً تثار في مجلس كهذا ولو أن الجواب عليها من أبسط ما يكون غير أنني سبق أن اصطدمت بأناس أعطوا حظاً من العلم ومع هذا فهم يجسدون هذه الظاهرة ويتشبهون بها بكل ما أوتوا من قوة والمجلس كان خليطاً من هؤلاء وأولئك .

قلت : القاعدة التي نركز عليها في هذا الموضوع هي أحاديثه

صلى الله عليه وسلم : من أتاكم ترضون دينه وخلقه فأنكحوه • وقوله :
لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى • وغيرها كثير • فأنبرى شاب
فقال : ألم يقل صلى الله عليه وسلم : تخيروا لنطفكم ان العرق دساس ؟
ويقول : اياكم وخضراء الدمن ؟

قلنا : أما قوله صلى الله عليه وسلم تخيروا - الحديث - فيعني
أن تبحث عن البيت الذي تتوفر فيه الرجولة والشهامة والكرم ، وهذه
تتوفر في الخضيرى كما تتوفر في القبيلي ، وليس المعنى بها العرق والعنصر
فكلكم لآدم وآدم من تراب •

أما خضراء الدمن فقد فسرها في نفس الحديث ، فقال وهو أصدق
من قال : المرأة الحسنة أو الجميلة في المنبت السوء • أو كما قال •
وهذا واضح أنه يقصد المرأة التي تروقك في بيت فاسد ، ولا بد أنها
قد حملت من تلك الطباع ، والفساد ما قد يكون في القبيلي كما هو في
غيره وقد يحدث في أعرق الاسر وأشرفها •

ولكن اللجاجة طالت وقاتل الله اللجاجة •

يتخاصمون على التوافه قاتل الله اللجاجة
وكل مبلغ مجدهم تصنيف قومهم « هراجه »
قد صعد الغرب القمر والقوم في خم الدجاجة

ما هي أسباب خضيرى وقبيلي ؟

من أين أتت تسمية الخضيرى والشدني والصانع وغيرها ؟
عرب الجزيرة من ميزاتهم حفظ الرواية وتداولها مئات السنين ،
وقد قال لي شيخ من أهل نجد : الخضيرى : نتيجة تزاوج العرب من

الزواج ، والشدني : عبد تولد ومع مر الزمن تغيرت بشرته فصار لا يختلف عن العرب الا في ملامح معروفة لديهم ، ثم قال لي : مثل فلان فاذا فعلاً هناك ملامح تميزه عن حوله •

فلم تسمية ذنج التزواج بين عربي وزنجي « خضيري » ؟

هذا أمر معروف في لغتهم، فالخضرة عندهم خلط البياض بالسواد، فالفرس أو العنز الخضراء هي التي يختلط شعرها سواداً بياض ، واللبن الخضرة هو ما خلط بالماء •

إذاً كلمة خضيري هنا معناها الخلط •

أما الصناعات فهم عرب اضطرتهم ظروف معيشية معينة إلى احتراف ما يأباه العربي فبذتهم قبائلهم فانبثوا فلا يزالون أحدهم •

ولكن هل جواز التزواج بين الاجناس المختلفة لم يكن معروفاً عند العرب قبل الاسلام ؟ بلى ، كان معروفاً وأوضح دليل واحد نسوقه لك هو زواج قرشية - وقريش أشرف العرب - من عبد دعي •

زواج أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس - وهي أم عثمان ابن عفان رضي الله عنه - بذكوان مولى أمية بن عبد شمس •

قال - يعني الحطيئة - يمدح الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، واسم معيط : أبان ابن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، واسم أبي عمرو : ذكوان ، وإنما كان عبداً لأمية من سبي الشام ، وحديث ذلك : أن أمية نافر هاشم بن عبد مناف ، إلى عبد العزى بن نوفل على خمسين ناقة سوداء الحدقة ، وعلى أن يخرج المنفور منهما عن مكة عشر سنين ،

فنفّر هاشماً على أمية^(١) ، فأخذ - هاشم - الإبل فنحرها وأطعمها الناس ، وخرج أمية عن مكة فنزل بالشام عشر سنين ، فلما قدم مكة ، جاء بذكوان ، واستلحقه من سبي الصفثورية معه فنسب إليه •

وتصداق ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يقتل عتبة بن أبي معيط ، قال : يا معشر قريش أأقتل بينكم صبراً وأنا رجل من قريش ؟

فقال له عمر بن الخطاب : حنّ قدح ليس منها •
وخلف ذكوان على امرأة أمية^(٢) •

وكانت بعد أمية تزوجت عفان بن أبي العاص ، ثم عقب عليها ذكوان ، فأبناء ذكوان أخوة عثمان من أمه •

فهذه امرأة من أعرق العرب وزوجة من ينافر هاشماً على شرفه ، تتزوج عبداً فيصبح أبناء ذلك العبد أخوة خليفة المسلمين ، ولم نعرف أن أحداً أعاب بها بني أمية أو غير بها قريشاً ، وقد بلغ بنوها من السؤدد إلى أن يقف الحطيئة أمام أحدهما وهو الوليد بن عتبة بن أبي معيط فيمدحه بهذه القصيدة - أبيات منها - :

عفا تؤم من أهله وجلائله	فردت على الحي الجميع جمائله
يعالين رقماً فوق عقم كأنه	دم الجوف يجري في المذارع واشله
كأن النعاج الغر وسط رحالهم	إذا استعجمت وسط الخدور مطافله
أبى لابن أروى خلتان اصطفاهما	قتال إذا يلقي العدو ونائله

(١) المنافرة أن يقول الرجل لقرنه : أنا أعز منك وأكثر نفراً ، ثم يقول الثاني مثل ذلك ، فيحتكمان إلى آخر يحكم بينهما ، فيكون الفائز نافراً ، والآخر منقوراً •

(٢) ديوان الحطيئة : ٢٣٨ إلى ٢٤١ •

وقد يقول قائل : متى كان مدح الشعراء حجة ، وهم الذين مدحوا من لا يستحق المدح بالاجماع ؟ فنقول : معكم حق . ولكن الحجة كل الحجة في ذلك النسب والحسب ، وزد على ذلك أن أم أروي هذه : أم حكيم بنت عبد المطلب البيضاء توءمة عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمّة النبي عليه الصلاة والسلام .

أما بعد ظهور الاسلام — وهو ما يليق بنا اليوم — فشان الزواج معروف وقصصه تطول وتعد بالعشرات بل بالمئات .

فماذا يريد هؤلاء وماذا ييغون ؟ وقد عرضنا لهم أن ذلك من ديدن العرب في الجاهلية والاسلام ، وان كثيراً من خلفائهم وملوكهم أبناء إماء ، وأيهما أشرف أمة ؟ أم عريية كل ذنبها أنها لم يعد أهلها يستطيعوا اللحاق بنسب القبائل ؟ انها مأساة يجب على أهل الفكر والعقل وعلماء الأمة وفعائها أن يتصدوا لها ويبينوا اضرارها وعواقبها للناس .

ولا تقل عنها مأساة تلك التي يدعي أهلها أن لهم درجة على الناس فلا يزوجون بناتهم الا لطبقتهم الخاصة ، ونسوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم زوج قرشية من مولى ثم تزوجها هو — صلى الله عليه وسلم — بعده .

۳

التریباض

٢ - انطباعات :

نهضة عارمة جبارة تكاد تسمح أطيظ التخلف تحتها ، وطققة أضلاعه ؛ هدم وبناء ، تعبيد شوارع واسعة مستقيمة تشبه أطرافها حواف المساطر ، حدائق غناء تزدان بالباسقات ، عمائر شاهقة صاعدة كالأبراج تعانق عنان السماء ، تطور سريع أسرع من كل تصور ، ونمو مطرد لا تشهده أية مدينة أخرى في الشرق الأوسط ، فقد غبت عن عمان ثمانية عشر سنة وعندما زرتها في العام الماضي استطعت - بكل سهولة - أن اهتدي إلى جميع بيوت أصدقائي ، وغبت سنتين فقط عن الرياض فتهت فيها ، ولم أكد أجد البطحاء ! مدينة أخذت تزحف في كل اتجاه فصارت تشمل مدنا كانت أقدم منها كالدرعية ومنفوحة وبعض قرى وادي حنيفة الأخرى ، وتضاعف عدد سكانها خلال النصف الأخير لهذا القرن عدة مرات فأصبح يقدر اليوم بـ « ٧٠٠٠٠٠٠ » نسمة ، ولن تمضي عشر سنوات أخرى الا وقد تضاعف عدد سكانها مرة ثانية، انك أينما سرت وحيثما اتجهت - في الرياض - لا ترى غير بناء وشق طرق ومهندسين يخططون الشوارع وآخرين يستلمون أو يسلمون أعمالاً أنجزت .

ورافق ذلك تضخم مالي هائل ففاضت الثروة حتى أصبحت لا تقدر وغليت السلع الاستهلاكية ، وفسدت ضماير الكثيرين فصاروا يبيعون

كما يشاؤون ، وقد يبيع عليك غرضاً بخمسة ريالات - مثلاً - ويبيعه على آخر بعشرة •

وليس هناك تسعيرة متبعة ؛ وغليت الأراضي حتى وصلت القطعة ٤٠ × ٤٠ متراً في بعض المواقع عدة ملايين من الريالات ١

الموقع

تقع الرياض بالنسبة للجزيرة العربية في ثلثها الشرقي تقريباً ، إذ المسافة بينها وبين جدة نيف وألف كيل ، وبينها وبين الدمام نحو نصف هذه المسافة أو أقل قليلاً •

وكذلك فيما يقرب من ثلثها الشمالي • وبالتحديد بين خطي الطول ٤٦° و ٤٧° ، وخطي العرض ٢٤° و ٢٥° •

وهي في فسيح من الأرض على جانبي وادي البطحاء المعروف قديماً بالوتر ، له ذكر في الشعر العربي ، ويمر شمالها وغربها وادي حنيفة ، الوادي الفحل كثير القرى ، وسيأتي ذكره ، وتتصل الرياض بأقاليم المملكة الأخرى بأربعة طرق رئيسية معبدة هي : طريق الحجاز ، وطريق القصيم ، وطريق الجنوب وطريق المنطقة الشرقية « الأحساء » وتتصل بالمنطقة الشرقية - أيضاً - بسكة حديدية ، وتتصل بالعالم بواسطة مطارها العالمي ، وإذا استثنينا هذه الطرق فإن إقليم اليمامة الذي تقع فيه الرياض يقع في موقع استراتيجي ممتاز تحيط به النفود من جميع جهاته مما يجعلها في مأمن من غارات الأعداء ومن أي غزو يشن ضدها ولذا تعتبر من أمنع العواصم موقعاً •

وعن قرب تحيط بها من الغرب والشمال الشرقي سلسلتان من الجبال : طُويق من الغرب والعرمة من الشمال الشرقي ، ومن الجنوب الشرقي جبال هيت ، وهي بعيدة نوعاً •

تاريخ الرياض

ليست هذه الرحلة كتاب تاريخ ، وانما أردت أن أعطي القارىء
لمحة عما قد يتساءل عنه .

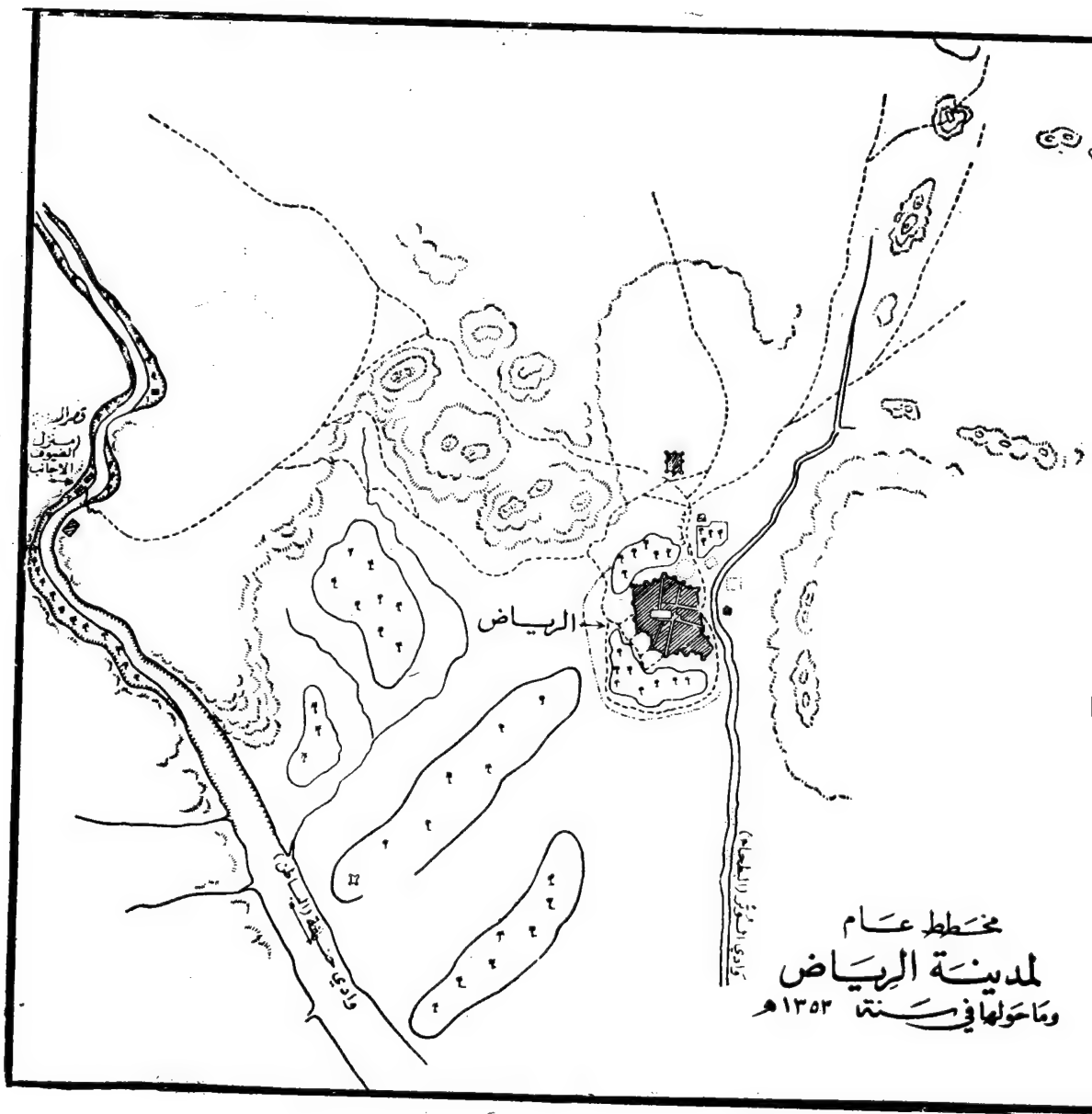
كانت الرياض تسمى « حَجْر » مدينة كان يسكنها قبيلتا طسم
وجديس ، فعمرتها وبنّت فيها القصور وزرعت الحدائق وفجرت العيون
فحاق بهم حائق الأزمان فاندثروا ، وبقيت منهم بقية كانت تعرف ببني
« هِزْآن » من طسم ، مع خلاف في ذلك .
ثم سكنت بنو عنزة حجراً^(١) .

ثم جاءت بنو حنيفة من أطراف الحجاز فسكنت حجراً ونسب
الوادي الرئيسي فيه لها « وادي حنيفة » .

وأول من سكنها عبيد بن ثعلبة بن يربوع الحنفي^(٢) في أخبار
تطول .

ثم ازدهرت حجر في عهد بني حنيفة في الجاهلية ثم صدر الاسلام،
فأصبحت قصبة اليمامة ، ومقر ولايتها ، واتخذها العرب سوقاً من
أسواقها^(٣) .

(١) و(٢) معجم البلدان : حجر ، وتاريخ مدينة الرياض : ١٨ وما بعدها .
(٣) تاريخ مدينة الرياض ٤٢ .



وعند قيام الدولة السعودية الأولى احتلت الدرعية مكانة حجر فصارَت عاصمة إقليم اليمامة ، وكثيراً ما تبعها أقاليم آخر فاستمر ذلك من سنة ١١٥٨ إلى سنة ١٢٣٣ ، وهو تأريخ تدميرها على يد المصريين .

وفي سنة ١٢٤٠ هـ تم طرد المصريين صلحاً من حجر بعد أن صار اسمها الرياض فاتخذت عاصمة الدولة السعودية . ويقول الشيخ حمد الجاسر : في القرن الثاني عشر أطلق اسم الرياض على ما تبقى من المحلات القديمة من مدينة حجر : « معكال » و « مقرن » و « العود » وغيرها^(١) ويظهر أن حجراً عندما تززع مركزها بقيت مزارع على شكل رياض - جمع روضة - فأطلق عليها هذا الاسم .

ومن أحياء الرياض المشهورة اليوم : البحر الأحمر في الشرق ، ودخنة في الوسط ، والعود في الجنوب ، ومنفوحة في الجنوب أيضاً ، وهي بلدة الشاعر الأعشى^(٢) صاحب الرائعة « ودع هريرة » .

والتي يقول فيها :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل ، وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهوينا كما يمشي الوجل^(٣)

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة ، لا ريث ولا عجل

(١) تأريخ مدينة الرياض ٩٤ .

(٢) هو ميمون بن قيس بن جندل البكري الوائلي من ربيعة ، لقب بالأعشى لضعف بصره . ولقب « صناجة العرب » . ويكنى بابنه بصير الذي ذكره في يائيته « ذريني لك الويلات » .

(٣) غراء : بيضاء ، وأصل الفرء بياض في مقدمة رأس الدابة . فرغاء : طريقة شعر الرأس . العوارض : الأسنان . الوجي : من به حفا في خفه أو حافره .

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق^(١) زجل

إلى أن يقول :

قالت هريرة لما جئت زائرهما : ويلي عليك ، ويلي منك يا رجل

بقي أن تعلم أننا في بلد هذه البلاغة وهذه الفصاحة ، وقبلها في بلد القرآن والرسالة الخالدة ، أننا نهجر هذه اللغة الشاعرة ، اللغة التي وسعت كتاب الله وحديث أبلغ البلغاء صلى الله عليه وسلم ، وندرس أبناءنا العلوم الحديثة باللغة الأجنبية ، ذلك أن بعض الأساتيد المستغربين يروجون - كما تعلموا هناك - بل يؤكدون أن لغتنا لا تستوعب العلوم الحديثة ، ولذا فلا بد من تدريس هذه العلوم - كالطب - باللغة الانكليزية^(٢) .

ألم تصدر هذه اللغة علوم الأولين لأوروبا ؟ ألم يترجموا عنها كتب الطب والفلك والحساب ويدرسونه في جامعاتهم إبان قيامها ؟ أكانت تستوعبه ثم ضاقت ؟ إن هذه اللغة ستظل قوية سليمة ما حفظ الله لها هذا الكتاب وما كان من أبنائها غير منافحون عنها ومكافحون ، وستبقى لغة الجنة إلى دخول الجنة .

(١) الوسواس : حميس صوت الحلي ونحوه . العشرق : نبات شبيه بالسنا ولكنه من الزواحف كريحه الرائحة له ثمر كسنف القتاد ، مأؤه دواء ضد السموم .

(٢) هذا المذهب روج له المستشرقون ، وتلقف ذلك بعض أبنائها فروجوا له ، ولو أنصفوها لقالوا غير هذا .

قبائل العارض

اليمامة اسم الاقليم الذي تتوسطه مدينة الرياض ، ويطلق عليه اليوم اسم العارض ، وهو اسم قديم أيضاً فالعروض من نجد معروفة في الأدب العربي وقبائل العارض اليوم هم :

١ - قبيلة سُبَيْع : وهم بنو سبيع بن عامر ، وكانت ديارهم الخرمة ورنية ثم حدثت حروب بين بني عامر بن سبيع والقريشات من الغلباء من سبيع ؛ فأزّر أمير مكة قبيلة القريشات التي انضمت إليها قبائل الغلباء ، وانضمت بنو عمر بن سبيع إلى بني عامر ، فأرسل الشريف جيشاً أجلى بني عامر وجزءاً من بني عمر فنزلوا الوشم وأطراف العارض الغربية، وكانت تدعى ديار بني خالد فاضافتهم بنو خالد وعاشوا زمناً في وئام وتآخ ، ثم حدث بينهم نزاع فحرب فتغلبت بنو سبيع على بني خالد فأجلتهم إلى الأحساء ؛ وتضرب اليوم قبيلة سبيع النجدية (١) شبه دائرة حول الرياض حيث لها حائر سبيع المعروف عند التقاء وادي حنيفة بوادي لحاء ثم تمتد شمال الرياض وشماله الشرقي على العرمة والسياهد وعدود رماح والرمحية .

وهي فرعان :

أ - بنو عامر : وهذه جلت كلها إلى هذه الديار ولم يبق لها بقية في الحجاز .

وفروعها : بنو حميد، عجمان الرخم، القدعاء ، العيادين ، الضعفة .

ب - بنو عمر : الحمالين ، النبطية ، الصملة ، العزّة ، آل علي .

(١) ذلك أن القبيلة الأم لا زالت في ديارها في الحجاز .

والذين لا زالوا في الخرمة : الجبور ، المدارية ، يسكنون الغريف قرب
الخرمة ، العرينات • ولمعظم فخذ بني عمر بواقي في الحجاز^(١) •

٢ - السهول : قبيلة من سبيع منفصلة عنها ، ويقال أن بها
أحلافاً من مطير وغيرها ، والحلف بين القبائل معروف مألوف ، وتسكن
هذه القبيلة شمال العارض والوشم الشرقي ، ويذكر لنا صاحب كنز
الأنساب من فروعهم :

آ - الظهران : ينتمون إلى المشاعة من سبيع

ب - آل محييد : ينتمون إلى المشاعة من سبيع •

ج - البرزان : ينتمون إلى برزان مطير^(٢)

د - السربة : من قحطان •

هـ - المحلف : من الشامسات من سبيع ، ومن آل محلف :

(١) آل عوين ، في الخرج والحوطة - حوطة بني تميم - وآل ثامر في

المحمل ، وآل عجلان في الرياض •

و - آل موضوع •

ز - القبابة ، ومنهم : القبابة في ضرمى ، وابن حسن في

الدمام •

ح - آل قنيان : في الأحساء من سبيع •

ط - آل عامر : في الأحساء من سبيع •

ي - آل هديب : في الأحساء من سبيع^(٤) •

(١) عن تلك القبائل وغيرها ، انظر : معجم قبائل الحجاز •

(٢) المعروف في مطير البرازات ، والنسبة إليهم برازي •

(٣) و(٤) كنز الأنساب للشيخ حمد الحقييل : ١٧٦/١٧٧ ولي مأخذ على كنز
الأنساب لكثرة غلطه في القبائل الحجازية ، غير أن نقلنا عنه في القبائل

النجدية هو نقل عن صاحب الدار العارف بما في داره •

٣ - العجمان : قبيلة معروفة في نجد مشهورة بالشجاعة وقوة المراس ، ليست من سكان العارض الدائمين بيد أنها تنتجع هذه الديار وتقترب من الخرج ، وقد رأيت قرية بسفح جبل هيت من الغرب شرق طريق الخرج فقيل لي إن سكانها من العجمان ، وليست فروعها واردة هنا لالتزامنا بخط الرحلة فقط ، ولعدم ثقتي بما بين يدي من مراجع حيث تكثر أغلاطها المطبعية .

الحركة الأدبية في الرياض

يعود تأريخ الحركة الأدبية في الرياض - بالمفهوم الحديث - إلى سنة ١٣٧٢ حين تأسست أول صحيفة بالرياض هي « اليمامة » أسسها حمد الجاسر ثم مجلة المعرفة سنة ١٣٧٩ هـ ثم جريدة القصيم ١٣٧٩ هـ ثم احتجبت ، ثم مجلة الجزيرة ١٣٧٩ هـ ثم صارت جريدة إلى اليوم ، ثم جريدة راية الاسلام ١٣٧٩ هـ ثم احتجبت هي والمعرفة ، ثم جريدة الرياض ١٣٨٥ هـ حتى الآن . ثم تتابعت الصحف والمجلات ، وعرف في الرياض شعراء وأدباء جلهم استوطن المدينة في الوظائف الحكومية ، وإذا استقرت تراجمهم وجدت جلهم من الحجاز ، وآخرون من القصيم ومن الأحساء وعسير .

غير أن حركة الأدب - بمعنى الأدب - كانت راكدة خلال السنوات الفائتة ، فالصحافة انشغلت بالخبر ، والتأفة من القول ، وظهرت فيهم طبقة ذات مزاج خاص كثيرة النقد قليلة الانتاج ، وقد يلقون مقالة أدبية هادفة في سلة المهملات بينما ينشرون لك هراء تحت عنوان « قصيدة من الشعر الحر للاستاذ فلان » وبالحرफ الكبير المحبر ، فتقرأ كلمات جميلة منمقة لا يربطها رابط أو يؤلف بينها سياق . وتأسس النادي الأدبي قبل ما يقرب من سنة ولكن ليس له أي

نشاط ، وكثيرون قابلتهم ليسوا أعضاء في النادي ولا يكونون له كثير مودة ، وقال بعضهم انه لم يدع له . واذا خرج بين حين وآخر كتاب أو قصة انهال عليها النقد من أناس لا يقدمون للأدب شيئاً ؛ ونحن شعب لا يعرف معنى النقد^(١) ، فالناقد يقدم المساوىء فقط ، والقارىء يهرب عن أي كتاب سمع أن فلاناً هاجمه ونقده باعتباره - في عرّفه - لا يصلح طالما أن الناس قالوا : قد أخطأ في كذا ولم يوفق في كذا ؛ واذا استثنينا صفحة في مجلة اليمامة وشذرات في صحيفة الجزيرة فالأدب مفقود في صحافتنا ، في الرياض . أما الطباعة فعرفتها مدينة الرياض لأول مرة سنة ١٣٧٤ هـ عندما أسست مطابع الرياض بهمة الشيخ حمد الجاسر واشترك كثيرين معه ، ثم صارت مطابع أخرى بعد ذلك كمطابع الجزيرة اليوم ومطابع اليمامة وغيرها .

أودية الرياض

حيث توجد الأودية توجد المياه ، ويوجد الخصب والنماء ، فيكثر الزرع وتعمر الأرض ، وفي العصور السابقة يعتمد عمران الأراضي الداخلية على قدر صلاحيتها للزراعة .

واذا اكتنفت الأودية أرضاً ما كان الرواء والرجع ، وكلما كان الوادي متعرجاً كثير المضائق كانت مياهه أغزر ، ولذا تعتمد الحكومات إلى إنشاء السدود لترويض الماء وتخليب فائضه في جوف الأرض ليستخرج على هيئة عيون جارية أو آبار يضخ مأوها .

وكلما كان الوادي واسعاً مستقيماً في انحداره قل الرواء فيه وانقلبت مياهه وضاعت هدرأ .

(١) ليس هذا بالضرورة منطبقاً على كل نقادنا ، فمعدرة .

وللرياض أودية تكتنف ما كان يعرف بحجر « الرياض اليوم »
تسيل من جبال تحصل على فرص مناسبة من الامطار بالنسبة الى عموم
الجزيرة العربية ، ولذا عرفت حجر قديماً بكثرة مزارعها ونخيلها وأكثر
المؤرخون والرحالون من وصف ذلك •
وهذه الأودية هي :

١ - وادي حنيفة :

واد فحل من أودية اليمامة كثير المزارع والقرى ، خضر نضر
دائماً وابدأ •

يأخذ أعلى مساقط مياهه من الصفر الواقعة غرب بلدة سدوس
شمال الرياض ، ويأخذ معظم روافده من جبل « طَوَيْق » تلك السلسلة
التي تمر غرب الرياض ممتدة شمالاً موغلة إلى مدى بعيد •

ويجري وادي حنيفة باتجاه الجنوب في تعرج وكثرة روافد مما
جعله أبدأ ريان مرجعاً • وتتجمع روافده العلى في الحيسيات
«الأحسي»^(١) المارة معنا فيما تقدم ، ثم يمر بالعينة فالجبيلة ، حيث
يأتيه من الشرق وادي عقرباء ، ثم ينحدر إلى الملقى حيث تجتمع فيه
ثلاثة أودية : حنيفة نفسه ، والملقى المسمى به المكان ، والعمارية •
ثم ينحدر في تعرج الى الدرعية ، ثم الى أن يمر بصياح وعتيقة ، فيمر
غرب الرياض ، وعليه جسر يعتبر المنصف بين أعلاه وأسفله كما يقول ابن
خميس، وقبيل الجسر يكون قد رفده من الغرب وادي نمار: وادعذب الماء
مدت مياهه الى الرياض • ثم يستمر الوادي فيمر غرب قرية منفوحة ثم يأتيه
وادي الوتر من اليسار ثم ينحدر حتى يجتمع بوادي لحاء في حائر سبيع، ثم

(١) كانت ثنية لها ذكر في حروب الردة ثم أعلت اسمها لصدر وادي
حنيفة •

تذهب مياه تلك الأودية إذا اجتمعت متجهة شرقاً مندفعة فيما يسمى
بوادي السهباء المار بمدينة الخرج ، والذي يعود الفضل إليه في كثرة
مياه الخرج حيث أنه مجمع أودية ذات سيول عظيمة . وكان وادي
حنيفة يعرف بـ « العرّض » ويعرف أيضاً بالباطن .

٢ - وادي لحاء :

نهى عظيم يمر غرب الرياض وغرب وادي حنيفة المتقدم . يأتي
من أطراف الوشم الشرقية وعليه كثير من مدن ذلك الاقليم ، ثم
يتجه جنوباً شرقياً بين سلسلتي طويق « عارض اليمامة » ويأخذ
روافده منهما من اليمين والشمال ، ويمر ببلدة ضرمة ثم بديراب « دعاه
ابن خميس أديراب ، » ثم يجتمع مع وادي حنيفة في حائر سبيع .

وهو واد واسع كما أسلفنا مستقيم ليست به عرج تذكر ، ولذا
تقل مياهه وبالتالي يقل سكنه عن وادي حنيفة ، ويأخذه طريق الحجاز
منذ أن يهبط ديراب الآتي ذكره إلى بلدة مراة ، وأعلى وادي لحاء كان
يسمى قرقرى له ذكر في كتب الأدب ، وأسهب ابن خميس في ذكره^(١)
وليست هذه الرحلة لاستيفاء النصوص وانما وصف مشاهدات .

٣ - السلي :

واد يسيل من السفوح الغربية لجبل العرمة الآتي ذكره ، ثم
ينحدر مجنباً بين سلسلة جبال العرمة شرقاً يساره ، وبين عرق بنبان
يمينه ، ثم يمر شرق مدينة الرياض ، وبينها وبين الخرج ، ولا شك أنه
إذا فاض مأؤه يتصل بالسهباء مجمع الأسياح في اليمامة .

(١) المجاز : ٣٩ وما بعدها .

وهو واد قاحل ليس فيه زرع ولا سكن دائم غير أنه سهل متسع يشبه الروضة فاذا رجع كان من أحسن المرباع فيخرج إليه أهل الرياض في خيام يتنزهون خلال فصل الربيع ، وقد بدىء الآن بمشروع مطار الرياض العالمي في مساحة من السلي يسار الطريق إلى الأحساء ، يقدر ضلع مربعها بثلاثين كيلاً •

٤ - وادي الوتر :

ضم واده الجاسر ، في تأريخ مدينة الرياض ، وكسرها ابن خميس في المجاز ، واتفقا على تسكين التاء المثناة فوق • وأوردته ياقوت بقولين : الضم والكسر • ولم يضبط في ديوان الأعشى :

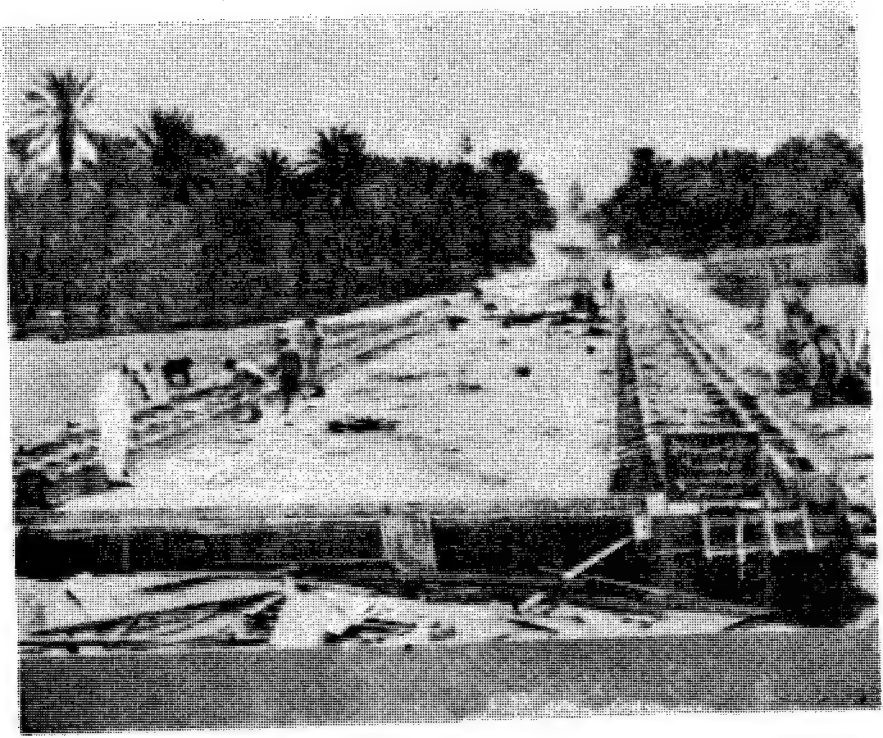
شأقتك من قتلة أطلالها بالشط والوتر إلى حاجر

وهو واد يأتي من الشمال الشرقي من مرتفعات بسيطة فوق مطار الرياض الحالي ، ثم يخترق مدينة الرياض فيسمى « البطحاء » وقد جعل هناك في أخدود يحيط به سياجان يمر مأوه بينهما ثم يستمر جنوباً مع ميل إلى الغرب حتى يجتمع بوادي حنيفة جنوب بلدة منفوحة؛ وإذا سال كثيراً ما يعرقل المرور في الرياض ، وشارع البطحاء اليوم يعتبر السوق التجارية للرياض ، وعليه معظم فنادق الدرجة الثانية •

٥ - وادي البعيجاء :

لم أر هذا الوادي ، وإنما ذكره ابن خميس في المجاز حيث قال : والثالث - يقصد الأودية التي تصب في الحائر - وادي « البُعِيجاء » يصب بعد وادي لحاء مباشرة عن يمين المنحدر مع الوادي وهو يقبل من الجنوب الغربي ، وأعلاه محاذ « لنساح » ويشترك سيله مع سيل

وادي الأوسط ، قرب مخاليف نساح (٩) (١) .



جسر وادي حنيقة

ولاجتماع هذه الأودية في الحائر « حائر سبيع » اختزن أرضه
مياهاً جوفية جيدة فغزت بثاره وكثر زرعه ، ثم مد منه الماء لسقي
مدينة الرياض • ويقع الحائر جنوب غربي الرياض على قرابة (٢٢)
كيلاً • بلد عامر سكانه قبيلة سبيع المار ذكرها •

(١) المجاز : ٣١/٣٠ •

جبال الرياض

جبال الرياض أو جبال العارض : سلسلتان تمتد أحدهما غرب الرياض آتية من الجنوب البعيد ، وهذه تسمى « طثويق » أو عارض اليمامة، ثم يفصلهما وادي لحاء إلى سلسلتين أيضاً أحدهما تمتد إلى الشمال بين وادي حنيفة ووادي لحاء ، فتكون مياهاها الشرقية في وادي حنيفة، ولذا تكثر روافده الكبيرة من هذه السلسلة كنمار ووادي لبن ووادي سُدَير ووادي العمارية ، وغيرها كثير^(١) . وتكون مياهاها الغربية في وادي لحاء وأما السلسلة الثانية من عارض اليمامة فهي التي يفصلها وادي لحاء يمينه إلى الجنوب الغربي ، وهذه تأخذ شمالاً غربياً إلى قرب مرارة ثم تنقطع .

أما السلسلة الثانية من جبال الرياض فهي « العرمة » : سلسلة جبلية تمتد من شمال شرقي الرياض فتمر شرقه إلى قرب الخرج ، مياهاها الغربية في وادي السثلي - معظمها - والشرقية تنجّه صوب الدهناء ، أودية فيها رماح والرمحية بئران ، ويفصل هذه السلسلة شرق الرياض الطريق إلى الاحساء في مضعف منها ، ثم تبدأ بعده في الجنوب جبال « هيت » التي تراها يسارك وأنت متجه إلى مدينة الخرج .

وهناك أجبل بل آكام صغيرة منتشرة في وحوّل مدينة الرياض منها: جبل أبي مخروق : أكمة حمراء على الضفة الشرقية لوادي الوتر في صدره مخرومة ترى من جانب منها من في الجانب الآخر ، ويقول الجاسر انها كانت تدعى « الخربة » بضم الخاء المعجمة^(٢) .

(١) انظر : المجاز : ٢٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ مدينة الرياض : ١٧ .

ثم جبل المرقب : على الضفة الشرقية أيضاً من وادي الوتر إذا اقترب من العود ، على طرف شارع طارق بن زياد ، وسمي به الحي الذي يحيط به « حارة المرقب » .

اليمامة

اقليم واسع من جزيرة العرب أكثر من ذكره الشعراء والمؤرخون والرحالون ، فنعنوه نعتاً ووصفوه أوصافاً تدل على كرمه وخصبه ، وقد نقل حمد الجاسر في تأريخ مدينة الرياض^(١) إن اليمامة كانت أخصب البلاد - ربما يقصد الجزيرة - وأكثرها مياهاً وزرعاً ونخلاً

غير أن ما نقله الجاسر عن صاحب بلاد العرب بأن والي اليمامة كان يجبي وادي القرى غرب المدينة ، ومدينة الجار على ساحل البحر الأحمر^(٢) ، غريب حقاً ولا بد أنه من وهم المؤرخين أو تصحيف الأسماء خاصة إذا عرفنا أن في نجد وادياً يسمى وادي القرى جاء ذكره قرب جلال ، والا ماذا يكون مصير المدينة إذا وصلت سلطة صاحب اليمامة ما وراؤها من جميع الجهات ؟ أ تكون هي تابعة لليمامة ؟ هذا ما لم يذكره مؤرخ ، أم تكون كجزيرة داخل حدود ولاية اليمامة ؟ وهذا لا يتفق والمنطق .

واقليم اليمامة كان يشمل ما يعرف اليوم بأقاليم : العارض^(٣) وسدير والمحمل والوشم والشعيب والخرج والأفلاج والفرع .

وبتحديد أدق فإن اقليم اليمامة كان يشمل كل الأرض المحاطة بالرمل من الدهناء شرقاً ، إلى نفود الدحي غرباً ، المارة بين شقراء

(١) و(٢) تأريخ مدينة الرياض : ٩ .

(٣) العارض : الاقليم الذي تتوسطه مدينة الرياض .

والدوادمي فاصلة اقليم الوشم عن السر ، ومن الربع الخالي جنوباً إلى التقاء نفود الزلفي والدهناء في الشمال . وعلى هذا يمكن تقسيم مانسميه اليوم بالمنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية إلى ثلاثة أقاليم فقط : اليمامة ، والقصيم ، ونجد .

ومعروف أن الأقدمين ماكانوا يطلقون اسم نجد على البلاد الواسعة التي تشمل اليمامة الا من سبيل المجاز ، وفي تحديدات الأولين - على اختلافها - نصاً قوياً أن نجداً من وادي الرمة وجنوب . وسألت شيخاً مرة ونحن بالصياهد هل هذه من نجد ؟ قال لا . قلت : وأين نجد في نظركم ؟ قال : ما وراء نفود السر . وهو قول فيه كثير من الصواب يتوارثونه حتى الآن^(١) .

ومن مدن اليمامة اليوم : الخرج : على قرابة مائة كيل جنوب شرقي الرياض يصلها طريق معبد ، وهي من أخصب أرض اليمامة وأكثرها مياهاً .

وشقراء : وسيأتي ذكرها مستقبلاً على الطريق .

والمجمعة والزلفي وحريملاء والدرعية، وكلها سبق الحديث عنها . وتجدر الإشارة أن قرية هي اليوم قرب مدينة الخرج تسمى « اليمامة » .

وظلت حجر « الرياض اليوم » قصبة اليمامة منذ أن عرف اسم اليمامة ، ما عدا الفترة التي كانت الدرعية فيها عاصمة الدولة السعودية، وقد تقدم الحديث عنها .

(١) وهذا ليس بحثاً تاريخياً ، ولكنه قول موجز أملتة هذه الرحلة ، والرحلة عجلة كالسير فيها وليست دائماً معنية باستقصاء النصوص .

٤

من الرّيساض إلى مكّة

السفر إلى الحجاز مما تشتاق إليه النفس وتطرب ، ومما يجد فيه
الخيال مسرحاً ومحللاً علوياً •

لقد ذكرتني عن حباب حمامة بعسفان ، أهلي فالقواد حزين
فويحك كم ذكرتني اليوم أهلنا لعل حمامي في الحجاز يكون

وما أن فرغت من صلاة عصر يوم الثلاثاء ١٣٩٦/٢/٥ هـ حتى
اتخذت طريقي مستأنفاً هذه الرحلة إلى الحجاز ، وكأني أقول :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار
وفي آخر شارع البطحاء مما يلي الطريق توقفت عند مصلح عجلات
فغيرت زيت سيارتي •

رفقة علي غير موعده

وهنا تقدم إليّ شاب في العقد الثالث من العمر فحياني تحية
الصديق المحب ، وطافت صورته في الذاكرة ، ان الملامح ليست غريبة
علي ولكني لم أستطع تجميع الصورة واستعادتها ، وبدون تطويل ،
فقد ذكرتني هذا الشاب نفسه فاذا هو من أرحامي سبيع ، فدعاني
إلى داره وألح في الدعوة ، وكرم سبيع يضرب به المثل فهم أهل المثلثة
التي قل أن يجمعها مضيف في البادية لضيوفه : اللبن ، والتمر ، واللحم ،
على التوالي •

ورجوته بأن يعتبر عذري ضيقته ، وأفهمته بأني في حاجة ملحة إلى مواصلة السفر . وعندئذ قال : إذا عندي نفرين - شخصان - من أرحامنا قحطان تأخذهما معك إلى الطائف . فإذا أنا أمام رفقة من أرحام أرحامي والعذر منهم غير مقبول؛ وفي الواقع - وإن كان البعض يعتبر هذا عيباً - فاني لا أميل إلى رفقة في السفر كثيراً ، فرفيق السفر يعجلك حين تريد التأنى ، ويؤخرك حين تريد العجلة ، وإن أردت المبيت أراد الشرى ، وإن أردت السرى أراد المبيت .

غير أن تقاليدنا فرضت علي الترحيب بضيوف الصديق فذهبنا إلى بيته ، ودخل ، وبعد وقت خرج شيخ كث اللحية أبيضها ، أبيض الوجه والثياب ، عليه سيماء الصلاح ، وتدل هيئته أنه ليس من البادية ، ثم لحقته امرأة تبدو في العقد الرابع، وتبرز عيناها من فتحتي البرقع الذي هو - عادة - لباس معظم بادية الجزيرة اليوم . فركبا ، وسرنا على طريق الحجاز وعبرنا جسر وادي حنيقة ص عدين حزوماً ذات قرارة واسعة، وهي الطرف الجنوبي لجبل طويق الشرقي .

وعلى « ٣٠ » كيلاً من الرياض انحدرنا في منحدر متعرج حاد يسمى « طلعة ديراب » .

ديراب

ودعاه ابن خميس « أديراب » مدخلاً عليه الألف . مزارع يهبط إليها الطريق من تلك العقبة المار ذكرها ، وهي في بطن وادي لحاء ، وفي مضيق منه قبل مواصلة رحلته الطويلة إلى حائر سبيع ، وتقع أول هذه المزارع على « ٣٥ » كيلاً من الرياض . وكان الطريق قبل العقبة « طلعة ديراب » يسير جنوباً غربياً ثم عدل الآن إلى الشمال الغربي

بامتداد وادي لحاء ، وبين سلسلتي طويق الشرقية والغربية ، ترى
نعوفها الشقر التي يزيد لها جمالا انعكاس شمس الأصيل ، تراها
يمينك وشمالك كما تشاهد فوهات الأودية المنقضة منها في وادي لحاء •

الجوازي

كان رفيق الرحلة يدعى أباراشد، وعرفت فيما بعد أنه علي بن راشد،
ولكن الذي لم أعرفه وما كان يهمني هو اسم رفيقتنا ، هذه المرأة
المسترجلة كجل نساء الجنوب ، فهن يتحدثن مع الرجال بنفس الطلاقة
التي يتصف رجالهن بها ، ويسافرن مع الركب ويركبن المطية مرجاً^(١)
ويأكلن - اذا لزم الأمر - مع بني قومهن • وبينما كنت السيارة
تسابق الريح بين ديراب وضرماء أحسست بلفحات الهواء البارد، فقلت :
« صكي الزجاج يا أخت » قالت - وهي ترفع الزجاج - : اسمي
جازي « جوزاء » وينادونني « الجازي » •

فأردت أن أشد في عنان هذه المرأة المسترجلة - ويسمونها
رِجَالِيَّة - فقلت : ولكن الفرق كبير بينك وبين الجوازي !

قالت : إيه الجوازي ما تلبس ثياب ! فسكت • فقالت « وش
بك سكت »!

قلت : خشيت أن تثبي لي إنك من الجوازي !
وما أسرع بديهة البادية وأشد ذكاءهم ، فقد ضحكا معاً أبو
راشد والجازي ، فأردفت : لا ، خل قلبك على كراسيه ، كله ولا هذا !

(١) المدرج : لا وتر عليها •

الغَطْطُ :

بتكرار الغين المعجمة المضمومة ، والطاء المهملة ، وفتح غينها ابن خميس في كتاب المجاز ، وذلك خلاف المسموع :

بلدة كانت في أول العهد السعودي هجرة للحمدة شيوخ برقا من عتية ، وكان أول ادراكنا تعني هذه الكلمة - في الحجاز - أولئك الرجال الذين يعتمرون الغتر الحمر ويلفون حول الرأس عصا ببيضاء ، فكل هؤلاء غَطْطُ . هذه البلدة تركنا طريقها يفرق يساراً قبل وصولنا ضرماء أو « ضرمه » كما ينطقها أهلها ، وتقع على النعوف الشمالية لجبل طويق الغربي ، وأهلها شديداً التمسك بالدين ، وهي ميزة لا زالت - لله الحمد - في جل أهل الجزيرة غير أنها في نجد أكد وأظهر .

ويلي الغطط يسرة أيضاً بلدة المزاحمية ، وأعتقد أنها منسوبة إلى المزاحمة : بطن كبير من الروقة من عتية .

ضرماء

وصلنا ضرماء على « ٨٨ » كيلاً من الرياض بعد ساعة ، ذلك أن أبا راشد كان يذكرني دائماً « أن العجلة من الشيطان ، والراضة من الرحمن » و « ما طائرات إلا وهن وقوع » .

وضرماء هذه مدينة تخطط بين القديم والحديث كسائر مدن نجد ، زراعية ذات غابات من النخيل ، فيها أماراة ومحكمة ومدارس للبنين والبنات ، ومحطة لبيع وقود السيارات .

ويقول ابن خميس : كانت تعرف باسم قرماء ، وكانت لبني ظالم بطن من بني نمير ، وهم : شهاب ، ومعاوية ، وأوس . وهذا عن معجم

البلدان مادة « قرما »^(١) ولا يرى ياقوت وجهها لمدة « قرما » وانما
مدها جرير ضرورة في هجائه لبني نمير فقال :

سيلغ حائطي قرماء عني قواف لا أريد بها عتابا
وقول السليك بن السلكة :^(٢)

تروح صحبتي أصلاً محار ، على قرماء عالية شواه
وقول الأعشى :

ويوم الخرج من قرماء هاجت صباك حمامة تدعو حماما

فمد الشعراء الثلاثة « قرماء » واذا أمنت فيه وجدت المد - ان
لم يكن أصلاً - فهو ضرورة . أما ذكرها ثراً فجاء كله بالقصر .

مرآة

خرجنا أو قل اجتزنا منطقة ضرما ، والشمس ترتفع عن النجاد
قليلاً ، وليست هذه أول مرة أسلك هذا الطريق براً فقد سافرت فيه
بسيارة جيب سنة ١٣٨٤ هـ من مكة الى الرياض ، وهو انذاك جله
ترايبي لم يعبد بعد ، ثم سنة ١٣٨٥ هـ وكان على حالته السابقة ، ثم
سنة ١٣٨٧ هـ وكان قد عبد كله ، غير أنني أردت أن أستعين بأبي راشد
بعد أن عرفت من حديثه والجازي أنهم ربعوا الوشم وسوقوا شقراء

(١) انظر : المجاز لابن خميس .

(٢) لم يترجم له في معجم الادباء ، ولا في البيان والتبيين ، ولم يذكر
في فهرس أيام العرب في الجاهلية . ويقول في المنجد : السليك بن السلكة
التميمي : أحد صماليك العرب العدائين في الجاهلية ، كان أول الناس بالأرض
وأعلمهم بمسالكها وأشدهم عدواً . ولم يزد على ذلك .

ومرأة سنة « موت الحيران » فقلت إذا مررنا بمعالم ظاهرة فاذا ذكر لي ما تعرفه يا أبا راشد ، ولكن لا تذكر ما لا تعرفه ! فقال : « أفا ، أكذب عليك » ؟

وبعد ضمنا مررنا بمزارع سمحان ذات السهول الواسعة، وأعتقد أنها من « قرقى » القديمة. وعلى « ١٧٦ » كيلاً من الرياض وصلنا امرأة ، وكانت تعرف باسم امرأة : بلدة في واد يشرف عليها من الشمال ضليع يسمى « الكميت » لونه أحمر بسمرة ، والبلدة أكبر من ضمنا وكان الأذان يتعالى من منائرهما التي حسبتهما ثلاث أو أربع ، ترجلنا فأدينا الصلاة أنا وأبو راشد في مسجد قرب محطة الوقود مبني بالاسمنت المسلح ، وبعد الصلاة خرجت فتوغلت قليلاً في البلد ، كانت تخطط خلطاً غير منسق بل كثير الشاز بين القديم والحديث ، غير أن القديم آيل إلى زوال ، وتلك البيوت اللبن تنهال عليها المعاول بدون رحمة ، وفي البلدة مقاه يستريح فيها المسافرون تقدم الطعام إلى جانب الشاي والقهوة ، وفي المدينة أماره ومحكمة ومدارس ، وشرطة منها قسم مرور ، وسألت رجلاً حسبته موظفاً عن عدد السكان . فقال : ثلاثين ألف . وأعتقد أن العدد مبالغ فيه .

ومرأة ذات ذكر في كتب الأقدمين ، ويقول ياقوت : بلفظ المرأة من النساء : قرية بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة سميت بشطر اسم امرئ القيس ، بينها وبين ذات غسل مرحلة على طريق النجاج .

ولم تدخل في صلح خالد بعد قتل مسيلمة الكذاب فسبى أهلها ، وسكنها حينئذ بنو امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم فعمروا ما والاها

حتى غلبوا عليها ، وكان ذو الرمة الشاعر^(١) نزل عليها فلم يدخلوا رحله
ولم يقروه فذمهم ومدح بهنس صاحب ذات غسل وهو مرئي أيضاً ،
قال ذو الرمة :

ولما وردنا امرأة اللؤم غلقت دساكر لم ترفع لخير ظلالها
وقد سميت باسم امرئ القيس قرية
كرام غوانيتها لثام رجالها
ويورد ابن خيس أيضاً^(٢) :

يعد الناسون إلى تميم يوت المجد أربعة كبارا
يعدون الربات وآل سعد وعمراً ثم حظلة الخيارا
ويسقط بينها المرئي لغواً كما ألغيت في الدية الحوار
وقد أقذع ذو الرمة في هجاء بني امرئ القيس ، ومن أشنع ما يذم
به العربي إلى يومنا هذا اهمال الضيف بخلاء أو احتقاراً • وذات غسل
الواردة في النص آنفاً تعرف اليوم بغسلة ، وهي ناحية من الطريق
يمينا بعد أن تتجاوز مراة بمسافة ليست طويلة •

نماذج من البشر :

توقفنا للتزود بالوقود ، وبينما كان عامل المحطة يعمل ذلك تقدم
إلي شاب أخذ يدخن بشراهة ويبخ دخان سيجارته بصوت مسموع

(١) هو غيلان بن عقبة : شاعر بدوي مفلح كان يتردد على البصرة
والكوفة وحجر اليمامة ، وكان يتعشق مية والخرقاء ، توفي سنة ٧٣٥ م ،
عاصر الفرزدق وجريداً ، له ديوان مطبوع ، قيل أنه يحوي ثلثي لغة العرب ،
قال الجاحظ ، قال أبو عمرو بن العلاء : فتح الشعر بامرئ القيس وختم
بذي الرمة • ومرض ذو الرمة • فلما حضرته الوفاة قال : أين تريدون أن
تدفنوني ؟ قالوا : وأين ندفئك الا في بطن من بطون الأرض ! قال : إن مثلي
لا يدفن في بطون الوهاد • فأوصى أن يدفن في الفرنداذ رمل بالدمناء ،
ويقال الفرنداذان • (معجم البلدان ، والمنجد ، والبيان والتبيين) •
(٢) المجاز : ٥٠ •

من الباب الذي أتكىء عليه ، وهو يقول : خذوني معكم إلى الدوامي
وما أسرع ما امتلأت السيارة بعجاج ذلك الدخان ، وأنا لا أكره شيئاً
كرهني لهذا الخبيث الضار بكل جارحة في الانسان ، وبينما كان هذا
الشاب يكلمني كان يركز نظره وبوقاحة متناهية إلى الخلف ، وكان
لحسن الحظ سرعان ما فاولني العامل مفتاح الخزان فحركت السيارة
دون أن أكلمه .

وقال أبو راشد : الله لا يجزاه خير ، دخن علينا !
قالت جوزاء : « أنت وراك ما صكيت القزاز في وجه هالخبيل
اللي ملأ السيارة دخان » (١)؟

قلت : ان قلة أدب الآخرين ليست حجة لنقل نحن الأدب .
قال أبو راشد : لولا اختلاف العقول ما كان في الناس صاحبي
ومجنون !

ثرماء

ثرماء : بفتح الثاء وسكون الراء ، وفتح ما بعده ممدود . بلدة
أصغر من سابقتها ، في واد ينحدر صوب الشرق إلى سهل قرقرى ،
وصلناها من بعد ستة أكيال أو زيادة طفيفة ، ليس بها ما يلفت النظر ،
ولم تتقدم كثيراً باستثناء مباني حديثة البناء مما يدل على أنها مقبلة على
تغير معالمها ككل مدن الجزيرة العربية اليوم ، غير أن للمدينة مجداً
غابراً ، وذلك ما رواه الشيخ عبد الله بن خميس في كتابه « المجاز بين
اليمامة والحجاز » فقال : وفي أوائل القرن الثاني عشر كان أمراء هذه
القرية — يعني أثيشة — قوماً من تميم يدعون العزاعيز ، وكانت القرية

(١) وراك : في لهجة أهل نجد تعني : لم ؟ أو علامك ؟

مستضعفة أمام قوة ونفوذ ثرمداء وأمرائها العناقر ، وكانت « أثيشة »
تؤدي الأتاوة لثرمداء بلدة العنقري ، وإذا نحر أهل أثيشة جزوراً فإن
أطايب لحما حق مستحق للعنقري بدون مقابل ، يبعث مملوكه فيجمله
إلى ثرمداء (١) .

والعناقر هؤلاء من بطون تميم ومن الذروة فيهم .
وفي معجم البلدان : قرية بالوشم من أرض اليمامة . وقال نصر :
موضع من ديار بني نمير أو بني ظالم من الوشم بناحية اليمامة ، وهو
خير موضع بالوشم ، وروى بكسر الراء ؛ وقال السكوني : ثرمداء من
أرض اليمامة لبني امرئ القيس بن تميم ؛ قال جرير :
انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى

والعيس جائلة ، أعراضها جئف
إن الزيارة لا ترجى ، ودونهم جهم المحيا وفي أشباله غصّف

فاذا نحن أمام بلدة تجتر أمجادها ، كانت أم الوشم فأصبحت
مجرد مساكن للذين لم يستطيعوا النزوح إلى معادن الثروة ، والحق أن
أهل ثرمداء الذين استوطنوا الرياض وجدة ومكة يكادون ينسون
ثرمداء ، ومنهم العناقر أنفسهم ، ولا يختلف عاقلان في أن لهذه المدن
حقاً على أبنائها الاصلاء الذين هبطت عليهم الثروة هناك حتى جعلتهم
يعتبرون مساقط رؤوسهم مجرد ريف من أرياف الجزيرة ، وحتى
الانتساب إليه أصبح منهم من يأنف منه !

(١) المجاز ص ٥٤ ، ٥٥ . صورة من صور العصور الغابرة تظهر في كل
زمان ومكان ، وهي ظاهرة استعباد الانسان أخاه الانسان ، ومنذ أن عمر الله
هذه الأرض ببني آدم كان لا بد من خضوع الضعيف للقوي بصورة أو بأخرى ،
أو خضوع الأقلية للأكثرية ، وبدون ذلك - رغم قسوته في النفوس - تصبح
الحياة فوضى بلا نظام ولا ضابط .

لا يصلح القوم فوضى لامرأة لهم ولا امرأة اذا جهالهم سادوا

أَثِيَّة

أثيثة : بتكرار المثلثة ، والمثناة تحت ، وأوله ألف ، وآخره هاء .

قال في معجم البلدان : أثيفية : بضم أوله وفتح ثانيه وياء ساكنة ، تصغير أثفية القدر : قرية لبني كليب بن يربوع بالوشم من أرض اليمامة ، وأكثرها لولد جرير الخطفي الشاعر^(١) ؛ وقال محمد بن ادريس بن أبي حفصة : أثيفية قرية وأكيمات ، وانما شبهت بأثافي القدر لأنها ثلاث أكيمات وبها كان جرير وبها له مال ، وبها منزل عمارة بن عَقِيل ابن بلال بن جرير ، فقال عمارة في بني نمير :

إن تحضروا ذات الأثافي ، فإنكم بها أحد الأيام عظم المصائب

ولم أر وصفاً أصدق وأكثر التصاقاً من وصف أثيفية هذه ، فانها تقع في واد يتسع قليلاً بين ثلاث أكيمات كأنها أثافي القدر ، أي بلغة الهندسة تكون رؤوس مثلث . ويظهر أن الفاء فيها قد حرف إلى التاء لتقدم العهد . وقد تقدم في « ثرمداء » ان أثيفية هذه كانت تتبعها ، أما اليوم فهي تابعة لشقراء أم الوشم .

ويذكر ابن خميس أن أثيفية ثارت ضد ثرمداء وقتل أهلها رسول العنقري ، فثارت الحرب بين القريتين فانتصرت أثيفية .

(١) هو جرير بن عطية بن الخطفي بن المراغة أبو حذرة . من بني كليب من تميم ، كان أحد الشعراء الثلاثة المعروفين بالمثلث الأموي : جرير والفرزدق والأخطل . نسب الأقدمون إليه أفضليات في الغزل والهجوم والمدح . ديوانه مطبوع . كانت له خصومات مع معاصريه الأخطل والفرزدق ، واشتهر هو والفرزدق بالنقائض المتبادلة بينهما .

(٢) انظر المنهل ص ١٣٩٢ هـ ص ٥٥٤ .

وتبعد أثيفية عشرة أكيال عن ثرمداء شمالاً ، وعشرة عن شقراء جنوباً • وعلى « ١٩٢ » كيلاً شمال غربي الرياض •

وكنا وصلناها والرؤيا حسنة فشاهدنا معالمها ، وحثنى أبو راشد على مواصلة السير لنصل شقراء « بالصدف » •

شَقْرَاء

تحركنا من أثيفية ولم يطل بنا السير حتى هبطنا إلى شقراء من مرتفع نسبي من جهة الجنوب وتقع شقراء - كسائر مدن نجد - في وادٍ متسع زراعي تحيط به المرتفعات من الجنوب والغرب والشمال ، وينفتح إلى مطلع الشمس حيث يكون تقريباً أعلى ذلك النهى أو الانبعاث الذي نطلق عليه - تجاوزاً وادياً لحاء - بينما هو سهول وقيعة واسعة يبلغ طولها بين شقراء وحائر سبع قرابة « ٢٥٠ » كيلاً ويأخذ معظم مياه الوشم بالإضافة إلى مياه الطويق ، وشقراء كسائر المدن النجدية ، ومعنى مدينة في نجد هو أن ترى غابة من النخيل الملتف في وادٍ عميق تتخلل تلك الغابة بيوت طينية أخذت تتبدل بسرعة ، فهي في الأصل واحات زراعية أقام المزارعون بين مزارعهم مساكن تلائم بيئتهم ويصنعونها من مزارعهم بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وبقدر تكاثرهم تكبر تلك القرى ، ولا تختلف شقراء عن هذا النمط ، غير أن موقعها في وسط البادية أعطاها ميزة أخرى ، فقد صارت سوقاً تباع فيه الإبل والغنم والسمن والشمال وكل ما يحتاجه الناس ، وكان سوق الصوغ فيها يعد ثالث سوق بعد مكة والمدينة في هذه الديار ، ثم جاءت النهضة الحديثة فساد الأمن واتصل العالم ببعضه ببعض فسهل السفر وتركزت الثروة في أمهات المدن فهاجر الشقراويون جماعات إلى الرياض وجدة ومكة وغيرها ، وظل فيها الذين عاشوا شبابهم كله فيها ،

ولم تتقدم الزراعة لعدم معرفة هؤلاء الذين اقتصرتهم مهمتهم على سقي النخيل ، ولكن الشقراوين لم ينسوا بلدتهم كلهم فساهموا إلى جانب ما تبذله الحكومة في تطوير شقراء . وتحرك العمران ولكن ليس بتخطيط بديع بل ان جله حل محل القديم بنفس تخطيطه ، وبلدية شقراء - على جهدها - قليل أثرها بالنسبة الى مجاراة هذه النهضة المباركة .

ومع أن الدولة تنفق على جميع المرافق بسخاء لم تشهده هذه الجزيرة قط ، فاننا - نحن المنفذين - لم نستوعب كل ذلك وننفذه ؛ وأم الوشم جميلة ولقيت من الدولة كل عناية ولكن موقعها محدود ، ولذا خطط لمدينة شقراء الحديثة في ظهرة في الجهة الغربية الجنوبية فأخذت تظهر هناك الفلل والمباني الحديثة ، ودخلت زراعة شقراء تحسينات بطيئة رغم بذل الأموال والآلات بأيسر الطرق . ويقال إن شقراء هو اسم الهضبة المشرفة عليها من الجنوب ثم سميت المدينة بها . تبعد شقراء « ٢١٢ » كيلاً من الرياض .

ويقول ياقوت: والشقراء ناحية من عمل اليمامة بينها وبين النباج، والشقراء قرية لعدي ، وانما سميت الشقراء بأكمة فيها .

ولم يبين أي عدي هؤلاء ، فعدي في العرب قبائل شتى .

ليلة في شقراء :

ما أن أشرفنا على شقراء من الجنوب حتى ظهرت شوارعها تتلألأ بالأنوار، فتركنا المقهى الكبير الذي يتوقف عنده معظم المسافرين، يسارنا ثم هبطنا المدينة فتجولنا في شوارعها قليلاً ، وقد كان أثر العمران الحديث ظاهراً ، وكانت بعض الهدميات ترى هنا وهناك ؛

ثم عدنا إلى ذلك المقهى لنقضي ليلتنا فيه رغم معارضة رفيقي^١ اللذين يحثاني على مواصلة السير ، وطلبنا من عامل المقهى أن يخرج لنا ثلاثة سرر بعيداً عن لمة الناس ، فقال : « بزيادة ستة ريالاً » فوافقنا بدون جدال ، فأبرزها لنا فوضعت أحدها عن يسار السيارة ، والآخريين عن يمينها لأبي راشد وابنته •

وكان العشاء هنا مثله في سائر محطات الطريق أو طرق المملكة اليوم تلك الأكلة الشعبية «الكبسة» فأنت عليها تتغدى وعليها تتعشى •

أيهما المحرم ؟

تركت الرفيقين عند السيارة وذهبت الى داخل المقهى الذي كان خليطاً عجيباً من الشعوب العربية مسافرين ومقيمين ، وبين لفظ القوم وصخبهم دخل شاب فلنته بادىء ذي بدء فتاة ، كان شعر رأسه يغطي أذنيه ، وقد حفه من الامام فوق الحاجب ، كما يعرف قديماً عند جداتنا بالخِفَّة ، وهي قص مقدم شعر الرأس فوق الحواجب • وكان الشاب يرتدي بنطالاً ضيقاً يشد خصره إلى درجة الحَقْط^(١) . وقميصاً ذا لون أحمر جذاب •

ودار حوار بين الحاضرين عن ماهية هذا الشاب فقال أحدهم : انه محرم لإحدى المدرسات هنا ! وكان عامل المقهى اليماني يمر ويسمع الكلام فقال : والله يا عمي هذا هو يشاله محرم ! عدت الى موضع مبيتنا وكان الجو بارداً والسحب تتكاثر منذرة بالمطر ، ورياح شباط تصفر ، وقضينا ليلة ليلاء في مرتفع من ربي نجد ذات الرياح الوجاجة ، غير أن تعب السفر جعلني أستغرق في النوم حتى أيقظني صوت أبي راشد يهلل ويسبح فظرت الى الساعة فاذا هي الرابعة وقد بقي على موعد الأذان أزيد من ساعة ، وكان صوت جوزاء تحت اللحاف كأنه تعرض لذبذبات كهربائية ، ولو وضع فوقها كل ما نحمله من لحف لظلت

(١) الحَقْط : شدة حزم الشيء حتى يغيب الحزام في المعزوم •

تنتفض وتزمرجر ! عندها شغلت سخانة السيارة وطلبت منها أن تدخل فيها وأغلقت عليها الزجاج بينما حملت لحافي وفراشي على كتفي ويمت داخل المقهى ولأياً وجدت سريراً ليس عليه أحد فتمت عليه ، وما أن تعالى نداء الحق من مأذن شقراء حتى نهضت عائداً إلى الرفيقين فأفرغت ما في الحافظة من ماء ساخن فتوضأنا به ، وعندما تحركنا كدنا نلوم أبا راشد على قيامه آخر الليل ! فقال : اسمع يا عاتق ! إن شاء الله انك وجه خير ولا يلحقك عرق من المنافقين ، إن كلمة لا إله إلا الله ، تصعد إلى السموات ، ولا يوجد عمل في الدنيا يعدلها ، والمنافق لا يستطيع أن يقولها عشر مرات ! (١) .

بين شقراء والودامي

خرجت الطريق من شقراء باتجاه الغرب ، فالطريق — أساساً — لو كانت عدلة ما مرت بثرمداء وأثيثية وشقراء ، وكانت خرجت من مراة غرباً ، غير أنها عرج بها إلى شقراء شمالاً عدلاً ثم خرجت منها غرباً ، ولذا قالوا : « أعوج من طريق شقرا » أي أكثر اعوجاجاً .

ومن شقراء صعدنا مرتفعاً يشبه الحزم يسمى عند أهل نجد صفراء ، ذلك أن لونه أضر يقرب من الصفار ، ثم هبطنا منها في أرض براح لا يحد النظر فيها ، ثم صعدنا نفود السر ، وهي نفود معترضة كانت السيارات تعاني منها الأمرين قبل تعبيد هذا الطريق ، ومنها هبطنا إلى أرض فيحاء هي أعالي وادي التسرير الذي يقول فيه أعرابي :

(١) هذه معلومات أبي راشد ، أما المنافق فكان له دور متقن في تقمص الاسلام وهو يخفي الكفر ، ولا شك أن المنافقين كانوا مستعدين لقول لا إله إلا الله مائة مرة ، ظاهراً .

وإذ يقولون :

ما يشفيك ؟ قلت لهم
مما يضم إلى غمران حاطبه
دخان رمث من التسرير يشفيني
من الجثينة، جزلاً غير موزون

والتسرير اسم قديم لواد يأخذ جل ما بين الوشم والشريف، وكان أسفله يعرف بالسر، وهو لا زال معروفاً كما تقدم معنا، ويعرف اليوم ما غرب الوشم وجنوب القصيم بأقليم السر وفيه إلى يميننا قرية البرود قرية الشيخ حمد الجاسر، التي ولد بها وتلقى علومه الأولية. وبتجاوزنا نفود السر تركنا وراءنا اليمامة وشرعنا في نجد، وهي كثيرة المرتفعات والأودية، والمنطقة الواقعة بين الدوامي وعفيف تشبه الحجاز.

ويأخذ التسرير مياه كل المنطقة الواقعة بين نفود السر شرقاً إلى السراة المارة قرب عفيف غرباً، ومن أكبر تلك الأودية وادي الرشاء الذي يبدأ من عند البجادية فيشمل حتى يجتمع مع تلك الأودية في قاع الخرماء قرب القصيم، ومن أشهر القرى الواقعة في هذا الحوض : عرجاء : شمال الدوامي، عنز : أراض استصلحت فجادت بالحجب قرب القاع المذكور، وخف : بلدة صغيرة لعتيبة يمين طريقنا هذا وغرب طريق القصيم. وبعد مهبطنا من النفود فرق يميناً طريق القصيم، وهو غير ذلك الذي يمر بالزلفي والمجمعة.

الدوامي

وعلى « ١٢٨ » كيلاً غرباً وصلنا بلدة الدوامي، وهي تختلف عن مدن اليمامة والقصيم من حيث العراقة والطراز، فليس فيها قصور طينية قديمة الطراز ولا ما يدل على عراقة البلد، ويظهر أنها ظلت محطة

للحجاج ومورداً للبادية حتى جاء عصر الآلة وتيسرت أسباب التحضر
فعمرت هذه المحطة ، ولها نظائر مثل البجادية وعفيف وظلم .
وتقع الدوامي في فسيح من الأرض الطينية الصالحة للزراعة ، وقد
تقدمت زراعياً ، ولجودة عنبها شهرة ، وفيها سوق عامرة ومقاه كثيرة ،
ولها أمارة ومحكمة وشرطة ومدارس ، ويظهر أن بلديتها نشيطة ذلك
أن شوارعها ظهرت نظيفة .

وبينما كنا عند محطة المحروقات كنا نرى سياجات البساتين
باسقة مما يدل على وفرة الماء ومن الدوامي يخرج إلى الشمال طريق
إلى : مصدة ، وعرجاء : بلدتان .

لبجادية

ثم خرجنا من الدوامي غرباً فأخذنا في الأرض الجبلية التي تتخللها
الأودية المتجهة شمالاً إلى وادي التسير ، ثم فرق يسارنا طريق
« الشعراء » وهي بلدة في تلك المنطقة الجبلية ، وهي على سفح جبل
ثهلان من الشرق ، وثهلان يرى من الطريق ، وكذلك الريان والنير :
جبلان .

وكلها لها ذكر مستفيض في الأدب العربي ، وقد أوفاهما حقهما
الاستاذ ابن خميس ، وهذه الرحلة سجل مشاهدات وانطباعات ، ولو
أردنا أن نأتي بكل ما نعلمه من نصوص وشواهد لبلغ هذا مجلدات ،
ولا تخلص مشاكل الكتاب الكبير اليوم حيث يصبح عبئاً على مؤلفه
ويتركه مخطوطاً لكثرة تكاليف الطبع وأزمة الورق والنقل ، وما شابه .
وعلى « ٦٥ » كيلاً من الدوامي وصلنا البجادية : بتخفيف الجيم .
وكانت تعرف بئر صقر ثم اتخذها سلطان بن بجاد الذي اشترك في
موقعة تربة سنة ١٣٣٧ هـ هجرة فنسبت إليه ، وكنت مررت بهذه

الهجرة سنة (١٣٨٥) فما كانت شيئاً يذكر ، ولكنها الآن تقدمت وكثر عمرانها ، وتقع على الجادة بين الدوامي وعفيف في صدر وادي الرشاء .

وبعد البجادية بـ « ٣٥ » كيلاً بلدة القاعية ، كانت أقدم من البجادية غير أن الأخيرة سبقتها •

عفيف

أخذنا نصعد في هذه المنطقة الجبلية التي لا يكاد شعراء العرب يتركون منها شيئاً إلا خلدوه في شعرهم فأشار أبو راشد إلى جبل يضرب الى الحمرة تبدو نعوفه وقننه من وراء الأجل الأقل ارتفاعاً ، فقال : « ذيك جيلة » وسكن الباء ، والمعروف « جَبَلَة » بثلاث فتحات: من أشهر جبال شرف نجد وفيها للعرب أيام^(١) . وتقع يمين الطريق بين البجادية وعفيف ، وبعد « ١٧٩ » كيلاً من الدوامي وصلنا عفيف ، وكان قد فرق قبلها بأربعين كيلاً طريق الجمانية إلى الجنوب • وعفيف بلدة كانت على بئر مورداً للبادية ومحطة في هذه الصحراء القاحلة ، وكانت تعرف ببئر عفيف ، تقع على السفوح الغربية لتلك السلسلة الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال ، والتي من أشهرها جبال : النير وثهلان وجبله ، وروى لي شيخ معسر انه أدرك عفيف هذه وليس بها شيء من العمار يذكر ثم تقدمت في العهد السعودي فصارت سوقاً تباع فيها الابل والأغنام وكل ما يحتاجه الناس ، وجعلها بعدها عن المدن الآهلة مجلبة لكل بضاعة ومقصداً لكل طالب حاجة •

وصلناها في نحو الثامنة صباحاً وكانت الحركة تدب فيها رويداً رويداً ، واتجهنا إلى مقهى يسار الطريق حصلنا بجانبه على غرفة كفتنا

(١) أيام العرب في الجاهلية ، ومعجمي ياقوت والبكري ، والمجاز •

جوزاء فيها بينما جلسنا أنا وأبو راشد قريباً منها في طرف المقهى ، وبعد افطار غير شهى رأيت أن أتجول في عفيف ، وعندما ذهبت إلى سوق البدو وكان النساء أكثر رواده ، ورأيت بعيني ظباء عفيف بعد أن كنت أسمع بهن من زملائي الروقة ، ورأيت فيهن الجمال الأخاذ مع الاحتشام وكمال اللباس ، وهن لا يضعن البراقع عن وجوههن ، وعلى رؤوسهن خمر سود يلزمها على تلك الرؤوس « مرسن » والمرسن : سلاسل وفيها دفايش تتدلى إلى الوراء ، ويشبه المرسن في وضعه عقال الرجال تماماً ، أما الثياب فاللون الغالب الأحمر مع ضيق متناسق في كل الطول ، ويسمونه « المدرعة » أما الرجال فلباسهم لم تعد به فروق ظاهرة عن لباس مدن المملكة . وعند بائعات الجلود والغزل والشمال طلبت من عجوز هناك أن أصورها مقابل مبلغ يعدل قيمة كل ما تبيع ، فنظرت إلي نظرة وقالت : « أفا » ومعناها عندهم : يا عيباه أو أما تستحي ! ولمحت إحدى الغيد آلة التصوير فسألتني عن كنهها ، فأخبرتها ، فقالت : يعني مثل اللي يصورون بها للتابعة ؟ قلت : نعم . ووجدتها مناسبة فعرضت عليها أن أصورها وأعطيتها صورة ! فجفلت وقالت : لا . ومدت اللام للتغليظ .

مررت بمؤلّد يبيع الحبال التي يسمونها « المقوط » واحدها مقط ، وكان حوله عزّيل من الشابات يساومنه على حبال وغيرها ، فلاحظ وقوفي فقال : نعم ، ياعم ؟ قلت : اتته من الأخوات اللاتي قبلي وأخبرك . وكأنه تضايق من وقوفي فقال : لا ، أنت أجنبي ولازم نبديك . فسمت حبلاً صغيراً قال : المتر بريالين . قلت : ولكنه في الحجاز بنصف ريال ! قال : رح اشتر من الحجاز . وكأن أولئك النسوة اكتشفن جديداً في الأمر فلم أنصرف وعنده منهن واحدة ! فنظر إلي نظر المغضب .

كان أرخص ما في سوق الحيوان في عفيف الحبير ، فكان ثمن

الواحد لا يزيد عن «١٥٠ ريالاً» أي أقل من نصف ثمن الخروف، ذلك أن أهل البادية استخدموا في الرّية سيارات الداتسون، فلم يعد للحمار سوق، فهو لا يؤكل ولا يحلب ولا وبر له ، ومن أمثالهم « مثل الحمار ما فيه غير ظهره » أي لا يستفاد منه الا في التحميل وخاصة حمل القرب ، وقد حلت محله ونيات الداتسون الصغيرة متعددة الأغراض ، ولو لم يكن الجمّل يؤكل لحمه للحق بالحمار لأنه هو الآخر لم تعد للناس حاجة في ظهره .

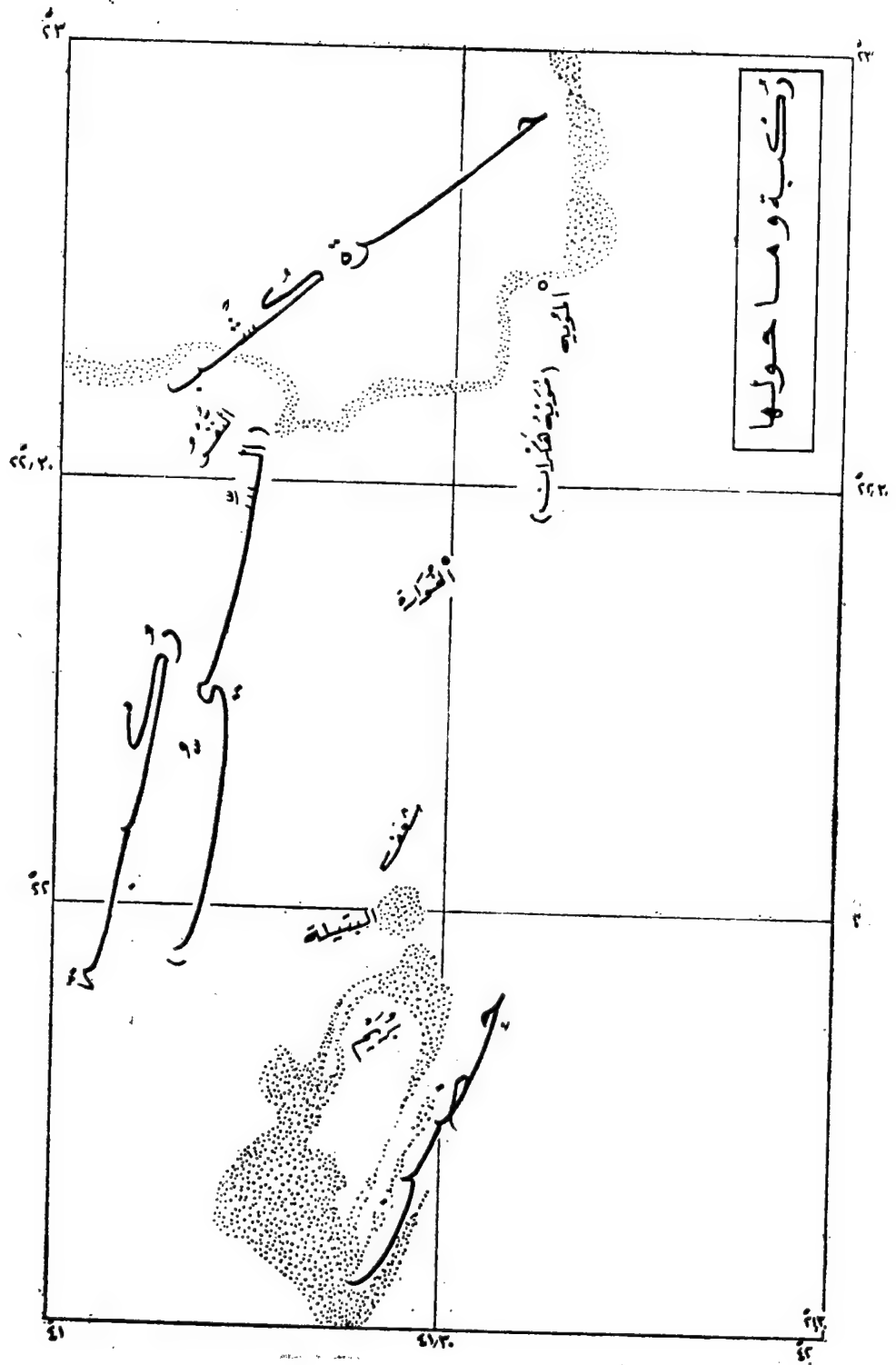
ظلم

خرجنا من عفيف ، وكان الطريق قديماً يأخذ ذات اليمين مغيب الشمس فيمر بمنهل الدفينة ثم بلدة المويه فعشيرة فإلى مكة عن طريق السيل الكبير ونخلة اليمانية ، ولما عبد أخذ به من عفيف ذات اليسار جاعلاً سجا يساره ماراً بظلم ، فتأخرت تلك القرى التي جنب عنها ، بل انتقل جل سكان الموية الى المحازة كما سيتبع ، والقرى التي قامت أساساً كمحطات للمسافرين ليست لها حياة بدونهم ، فلا يكاد يهجرها الطريق حتى يهجرها أنيسها وعامرها فتخرب وتندثر، فقديماً اندثرت كل من ودان والسيالة والجحفة — بين مكة والمدينة — عندما هجرها طريق الحاج . . وبينما كنا خارجين من عفيف كان يسارنا جبل أسمر ملموم يسمى « المردمة » على صيغة مفعلة . هذا الجبل لا تذكرة أهل هذه الديار حتى يقول لك السامع أو الحاضر : « على المردمة خيال ، وأهل الذود يطرونه » في القاء يشبه الشعر ، وله أسطورة ليست واردة هنا وبعد مسافة ليست قصيرة فرق يساراً طريق ترايبي إلى سجا ، وعرفت من أبي راشد انها ليست بعيداً من هنا ، وهي عد مورود ، ومن أمثالهم : « يغني الله عن سجا وماه » ذلك انها بئر طلب كثيرة الورود لوجودها في أرض قاحلة .

وبعد « ١٥٠ » كيلاً من عفيف وصلنا ظلم • وهي بلدة قامت على معدن كان يستخرج هناك ، وتقع في مفازة من هذا السهل الواسع الذي يبدأ من عفيف شمالاً شرقياً إلى سفوح حوض الغربية ، أي مسافة تقرب من « ٤٠٠ » كيل في ما لا يقل عن « ٢٠٠ » وهذه تساوي أقلية كبرى في مكان غير هذا ، ويغلب على هذا السهل اسم ركه في شماله الغربي من سفوح حرة كشب التي نراها بعيداً ولا ترى اذا لم يكن الجو صافياً إلى عشيرة غرباً إلى قرب المحازة جنوباً ، ثم يبدأ السي حيث يمتد شمال وغرب حوض ، ولا يعرف اليوم بهذا الاسم •

وليس في ظلم ماء ومقترح أن يمد لها الماء من الخربة الواقعة جنوبها • وجو ظلم بارد شتاء حار شديد الحرارة صيفاً ، لوجودها في صحراء جافة مفتوحة •

رَكْبَةٌ وَمَا حَوْلَهَا



المويه الجديد

المويه - تصغير ماء - هو ذلك البلد أو القرية التي أشرنا إليها آنفاً ، ولما جنب الطريق انتقل بعض أهل المويه إلى حزم كان يسمى « المحازة » يقابل المويه من الجنوب في صحراء مكشوفة كظلم .

خرجنا من ظلم ضحاء في تلك الصحراء الموحشة التي بدت قليلة النزل ، وطاف بالخاطر خيال ابتعد حتى استحضر صورة لعصور قديمة لا يكاد الرائي يحقق شكلها ، عهود ازدهار العربية في هذه الجزيرة عندما كان البدوي هنا يتكلم الفصحى بطلاقة ويعرب ويسنع على السليقة ، وكأني بأطعان لبيد بن ربيعة^(١) تحدى متجه شمالاً ، وهو يلتفت خلفه ويقول :

بكتنا دارنا لما ارتعطنا وحيثا سفيرة والغيام

ولكن أبا راشد قطع هذه الخواطر بأن طلب مني المرور على أبيات شعر كانت يمين الطريق بقصد التقهوي عندهم ، فعارضناه أنا وجوزاء ، قلنا له : إن القهوة لا بد تكون موجودة في المويه ، وعلى مضض نزل عند رغبتنا . لم تكن هناك أعلام تظهر في هذه الصحراء ، وهنا لمحنا عن يسار الطريق أكمثان أحدهما سوداء والثانية شقراء ، قال أبو راشد : هما شعفان ، وأحدهما شعف ، وعن يميننا كانت أكمة أو سلسلة أكيمات

(١) هو لبيد بن ربيعة الجعفري العامري ، شاعر جاهلي أدرك الاسلام فأسلم وحسن اسلامه ، أحد أصحاب المعلقات مطلع معلقته :
هفت الديار محلها فمقامها بمنى تابذ غولها فرجامها
ولما عمر المسلمون الكوفة هاجر لبيد إليها . وسفيرة والغيام الواردتين في شعره هما : جبلان قرب رنية شرق الطائف . ديوانه مطبوع ، وله شعر في الزهد .

تسمى « الأكموم » وينطقونها الكموم • وبعد قليل بدا « هكران » شمالاً بعيداً ، وهو أبرق تقع بقربه بلدة المويه • وعلى بعد « ٤٥ » كيلاً من ظلم وصلنا المويه الجديد^(١) •

كان بلداً قام على مقاه ومحطات الوقود التي انتقلت من المويه ، ثم أخذ أهل المويه يهجرونه تدريجياً حتى غدا المويه الجديد « المحازة » بلداً أعمر من سابقه ، وصار أهله يطالبون الدولة بالماء والمدارس وجميع المرافق ، ولا زالت الامارة في المويه القديم • وطلبنا من المقهوي أن يسعفنا بدلة لأبي راشد ففعل •

يبعد المويه الجديد « ١٩٦ » كيلاً من الطائف ، و « ٢٠٤ » أكيال من عفيف ، أي قريباً من منتصف المسافة بينهما •

رضوان

خرجنا من المويه فصلينا الظهر قصراً ، وكان أكبر ما نرى من أعلام هنا هي حرة كئيب شمالاً تسد الأفق ، وهي حرة تمتد من سهل ركبة جنوباً إلى قرب المهد شمالاً ، تسيل مياهها الشرقية إلى نجد والغربية إلى عقيق عشيرة ، ومن أوديتها الجنوبية وادي مرّان بلد قديم اندثر ثم عمر في السنوات الأخيرة وكثر نزله وحسنت زراعته •

ومررنا بالرحي - جمع رحا - حزوم سود متصلة ، ثم هبطنا وادياً كثير السرح - شجر - يقال له « قطان » له ذكر في أشعار العرب ، ثم بدت لنا نعوف حضن وشعوفه الشاهقة ؛ وعلى « ٦٥ » كيلاً من

(١) هذه المعالم وما بعدها وضحتها بأكثر من هذا في « معجم معالم الحجاز » •

المويه الجديد ، و « ١٣١ » كيلاً من الطائف المنى برضوان : مقاه
يفرق عندها طريق الخرمة يساراً فيلب حضناً من الشرق •

وقد لقينا من سفرنا ومواصلة السير نصباً وكانت الساعة الثانية
بعد الظهر ، فتوقفنا وطلبنا من صاحب مقهى هناك مكاناً للمرأة فاعتذر
عن وجود مثل هذا فجعلنا السيارة إلى جانب جدار فجلست جوزاء
بينهما ، وطلبنا الغداء فقال : « كبسة دجاج » • قلنا : قد مللنا الدجاج
طيلة هذا الطريق • فقال نذبح هريد^(١) وتأخذون ربه ونطبخه لكم •
ووافقنا على ذلك فذبح الهريد، وجاءنا بيد منه يقول : « هذي وزعتكم » !
ان لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب !

قلنا له : هذه إذا قسمة ضيزى • فنظر الرجل — بعين الغضب —
ونادى صبياً عنده وقال له : هات اللحم كله ! وجاء به فوضعه أمامي
وقال : « قسمة أنت » • وفعلاً قسمته أربعة أرباع بما في ذلك الرأس
والكرش ثم قلت : اختاروا ثلاثة أرباع ، فصار •
ولكن الأخ رفض أن يطبخ لنا قسماً مما اضطرنا للانتقال إلى
مقهى مجاور •

بين ضوان والطائف

خرجنا من رضوان بعد الرابعة فأخذنا في ذلك السهل الفسيح الذي
كان يعرف بالسبي ، وكان المنظر المألوف منذ أن خرجنا من غفيف هو
كثرة السيارات على جانبي الطريق منها المجموعة على جنبها والمستلقية
على ظهرها ، ومنها ما صارت كومة محترقة • وكان الشيخ راشد يحوقل
ويتعوذ كلما رأى مثل هذا •

ثم بدا يسارنا ضليح أسود بارز في وسط سهل السبي ، وهذا
الضليح يسمى « البرث » وقد حل في العلمية محل السبي ، فيقال : جنوب

(١) جدي صغير •

البرث ، وشمال البرث .. الخ ، لكل هذا السهل ، ويظل البرث يسار الطريق حتى تصل المبعوث ، وهو مجمع أودية الطائف الشمالية يمر فوقه جسر ، سيرد معنا في أودية الطائف •

ثم جعلنا القرشية - بئر - يسارنا عن قرب ، ثم جعلنا خلاصا عن يسارنا أيضاً وهو أكمة صغيرة بطرف وادي شرب من الشمال ، عليها منشأة حكومية ، ووراءه بدت الحرية ثم سلسلة جبال مدسوس التي تمتد جنوباً غرباً بين وادي شرب ووادي العرج ، ووراءها العبل والعبلاء وصلبة ، وكثير من هذه المعالم داخله في موقع سوق عكاظ الذي يقع على ملتقى وادي شرب بوادي العرج وما حولهما ، فعكاظ ليس موقعاً صغيراً بقدر ما هو مساحة أرى أنها تمتد من العرفاء غرباً مروراً بخزاز وخلص والحريرة والأخضر ثم العبل « العبلاء » • وبعد خالص جعلنا خزازاً يسارنا أيضاً ، وهو كخلص أسود لاطىء في وادي الريكة ، ويسمى المهيد - تصغير - فادا مره وادي الريكة سموه وادي المهيد •

أما عن يميننا فكانت أرض حثرة ذات أضلع ضعاضع يسيل منها شمالاً وادي قران ، وغرباً شمالاً وادي مَلَيْح المعروف اليوم بالسيل الصغير^(١) •

ثم ألمنا بالعرفاء : عرف منقاد يجبعه الطريق على « ٣٥ » كيلاً من الطائف ، ثم تهبط الريكة مباشرة من العرفاء : واديان يأتيان من الغرب من الحزوم الواقعة شمال الحوية ، وهذه الريكة الشمالية وبعده بقليل الجنوبية ، وهم يقولون : اليمانية والشامية • ثم مطار الطائف ، وبدا إلى اليسار بعيداً قرن : جبل أمغر محدد عال زلوج بجانبه آخر يسمى القرن ، تراهما حتى تقرب من الطائف يقعان على الضفة الغربية الشمالية لوادي لية هناك •

(١) استوفيت هذه المعالم وما جاورها في « معجم معالم الحجاز »

الحوية

بلدة نهضت في السبعينات فصارت نموذجاً للقرية ، ثم أخذت في الانحسار ، بها قصر ملكي جميل وفلل عديدة ، وأرضها جميلة ، والاسم أصلاً للوادي ، يشرف عليها من الشرق جبل القنة ، تبعد « ١٨ » كيلاً عن الطائف على طريق الرياض • ثم الممنا بالطائف المأنوس •

والجدير ذكره أننا منذ أن تجاوزنا بلدة الغطط قرب الرياض ونحن نسير في ديار قبيلة عتيبة العريضة الديار كثيرة الفروع •

عُتَيْبَة

قبيلة لم أستطع التوصل إلى سبب تسميتها ؛ والمعروف من فروعها اليوم يعود جله إلى هوازن ، والقول السائر مع العامة أو شبههم في تسميته قبيلة عتيبة يشبه السائر في تسمية هثيم^(١)، فهم يقولون: إن النبي (ص) عندما حارب هوازن قال : لم تبق علينا غير هذه العتيبة - تصغير عتبة - ، وهذا قول ليس له سند ولا ذكر فيما نظرت من مراجع ، وأراه من استنتاجات العامة مطابقة للاسم •

فروع عتيبة :

تنقسم عتيبة إلى فرعين كبيرين هما : برقا ، والروقة •

(١) لدقائق فروع قبائل الحجاز وأخبارها وديارها ، تفاصيل وافية في كتابي « معجم قبائل الحجاز » •

بَرَقَا

وتنقسم برقَا إلى : شَمْلَة ، وبني سعد • وقال بعض الباحثين أن برقَا من الأزْد ، فقال : برقَا بن الهنو : فخذ من الأزْد (١) وهو وهم ، فتلك برقَا — بالمشناة تحت ، والفاء — وليست برقَا ، فاشتبه عليهم • قال ابن دريد في الاشتقاق (٢) : ومن ولد الهنو بن الأزْد : حوالة ، وعَوْهَى والهون ، ويرَفَى • (مقصور) •

شَمْلَة

قبائل كبار متعددة البطون والفخوذ منها : الشيايين ، وأصلهم من سليم بن منصور (٣) •

والمقطة ، ويظهر أنهم من أقدم قبائل عتيبة ، ويسمونهم اليوم « ترثة عتاب » والألف هنا بدل الياء في لهجتهم ، وهي بطون متعدد •

والعصمة ، ونسبهم إلى قضاة ، والله أعلم • والقشمة ، وقد أخطأ من ظن أنهم بنو جشم ، وأن القاف هنا بدل الجيم ، والخير في لهجة بادية الجزيرة يعرف خطأ هذا القول •

والدعاجين ، والروسان • وجميع فروع هذه القبائل مفصلة في معجم قبائل الحجاز (٤) •

وقال بعضهم : بل تقسم برقَا إلى : شملة ، وعيال منصور •

(١) معجم قبائل العرب عن تاج العروس •

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ٤٨٧ •

(٣) هم بنو شيبان بن مرة بن عيس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم ، كانوا سدنة العزى في الجاهلية •

(٤) لا زال مخطوطاً وهناك قول أصح عن شملة فانظره •

بنو سعد

هم بنو سعد بن بكر بن هوازن ، حضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ديارهم حول قرن المنازل بين الطائف ونخلة ، ولازالوا بها إلى اليوم غير أن القسم الأكبر منهم انتقل إلى جنوب الطائف فملكوا أودية : بسل ، ومظلة ، وبقران ، وما حولها ، ولهم هناك قرى عديدة ، ولا اعتبار بقول القلقشندي : ولم يبق لهم حي فيطرق • فمثل قول القلقشندي هذا قاله كثيرون ممن هم بعيدون عن جزيرة العرب ، فذهبوا كنانة وبني سليم ، وغيرهم ، وهو وهم •

وتنقسم بنو سعد إلى فرعين عظيمين ، هما : الثبته ، والبطنين • ومن الثبته : لمصة ، والصريرات • ومن البطنين : النفعة ، وطفيح • ومنازل الثبته مقسومة فمنهم حول السيل الكبير الى قرب الطائف ، ومنهم حول بقران جنوب الطائف • أما البطنين ، فكل ديارهم جنوب الطائف ، وقد استوطن الطائف أحياء كبيرة من عتيبة •

الروقة

الروقة القسم الثاني من عتيبة ، وينقسم الى فرعين كبيرين أيضاً ، وهما : المزاحمة ، وطلحة •

ومن فروع المزاحمة الكبار : العضيان ، والغييات — بالغين المعجمة — والمراشدة ، وذوو عطية أو بنو عطية ، والأول أشيع ، والعوالي ، والثبته « امراء الروقة » وأصلهم من ثبته بني سعد • ومن فروع طلحة الكبار أيضاً : العوازم ، والذبية ، والدلابحة ، والحناشة ، وذو زراق ، والسمره ، وذوو حماد ، وبنو أسعد ، والحنفاة

ومن الحفاة هؤلاء قسم كبير عرفتهم بنابلس في فلسطين بالأردن ، لهم
فروع وقرى •

وكما سبق أن فوهنا تمتد ديار عتيبة من العارض بنجد حتى
المشارف الغربية لحرّة الحجاز عند رهاط ومدركة ، وإلى جنوب الطائف
وشرقه ، وهي تحيط به من ثلاث جهات •

وفي كتب الأنساب : رَوَّق: بطن من غزية، ومنازل غزية الحجاز •
وغزية : بطن من هوازن ، كانت ديارهم بسراة الحجاز •
فعلى هذا تكون معظم بطون عتيبة من هوازن •

٥

الطائف

أنا في الطائف استوحي الشعور ان في الطائف بعثا ونشور
أحيت الأحداق في نرجسها وأعادت في الأفاقي الثغور^(١)

الطائف ، المدينة الجميلة ذات الجو المنعش ، والهواء العليل ،
والمناظر الخلابة ، والأشجار المثمرة ذات القطوف الدانية ؛ الطائف
التي يهرع إليها كل ميسر اذا أخذت السائم تلفح الوجوه ، وسرت
حرارة القيظ في كل ما يحيط بالانسان ؛ هذه المدينة التي يشعر بالسرور
والانشراح كل زائر يطو أرضها ، ويشعر بشيء من الأسى والتحسر كل
من فارقتها ، أين تقع ؟ وما طبيعة أرضها ؟

تقع الطائف في شرقي مكة مع ميل إلى الجنوب على قرابة تسعين
كيلاً ، وجنوب غربي الرياض على « ٩٠٠ » كيل تقريباً . وترتفع مدينة
الطائف « ١٦٠٠ » متر عن سطح البحر مما جعل جوها معتدلاً صيفاً ،
وهي مصيف المملكة العربية السعودية ، وتنتقل إليها الوزارات في فصل
الصيف ، وتصبح في هذا الفصل شبه عاصمة .

أرضها جبلية تتخللها الوديان الخصبة ذات المياه النيرة السلسيل ،
وهي مشهورة بجودة الرمان والعنب والمشمش ، وتقع في رحبة في
تجويف من جبل الحجاز بين واديين ، هما : وادي وج من الجنوب ،
ووادي العقيق من الشمال ، ولها أحياء جميلة حسنة التخطيط والمباني
الحديثة ، ومن هذه الأحياء : قروى : في الغرب ، وشهار ؛ في الجنوب ،

(١) محمود الخطيب .

والشرقية : في الشرق ، والشهداء : في الجنوب الشرقي ، وشبرة : في الشمال ، والعقيق : في الشمال أيضا ، ومن أحيائها القديمة التسمية ، حي السلامة : هو الحي الجنوبي •

سكان الطائف :

سكان الطائف جلهم يرجع بنسبه إلى قبيلتي ثقيف وعتيبة المحيطتين به يخالطهم افناء عديدة من الأشراف العبادة الذين يملكون معظم أراضي القيم ولية وأسفل وج • أما الحاضرة فهم خليط — كسائر المدن — من المنصرين من تلك القبائل والمتحضرين في موجة التحضر الحالية ، وكثير من أهل نجد العاملين في التجارة وغيرهم • ويقدر عدد سكان الطائف بسبعين ألفا •

أودية الطائف

تحيط بالطائف — كما قدمنا — أودية فحول كثيرة المياه والزرع ، خصبة التربة جيدة الانتاج ، من هذه الأودية :

١ - وادي ليث :

بكسر اللام وتشديد الياء المثناة تحت :

واد فحل يأخذ من شفا بني سفيان من ثقيف ، ومن شفا الطلحات من هذيل ، جنوب غربي الطائف ، ثم تتجمع روافده الأول جنوب الطائف فيمر على « ١٥ » كيلا عن مدينة الطائف من الجنوب ، ثم يأخذ في الانحراف التدريجي إلى اليسار حتى يدفع في سهل السي عند

البرث شرق الطائف مع ميل إلى الشمال ، ويسمى أعلاه لِيَّة ، وأسفله جليل ، ثم وادي بني عدوان قرب مفيضة في ذلك السهل ، وعليه قرى عديدة وسكانه : في أعلاه ثقيف (١) ثم عتيبة والأشرف — بين طريق الجنوب وقرن — ثم عدوان أسفل من ذلك .

روافد لية : وادي لية كأبي وادٍ فحل تتعدد روافده ، ومنها :

١ - وادي عُرْضة : يأخذ من شفا الطلحات فيمر جنوب الطائف فيجتمع مع وادي خماس عند غدير البنات .

٢ - وادي خُمَاس : أعلاه للطلحات من هذيل ثم لعوف من ثقيف ويسمى أسفله حمى عوف يمر جنوب عرصة ويجتمع معه كما أسلفنا .

٣ - وادي الضيق : يأخذ من جبل دكا بشفا بني سفيان ثم ينحدر مشرقاً جنوب خماس ، ويسمى أسفله عمقان ، ويقال له حمى بني سالم من ثقيف ، ثم يجتمع مع وادي ثماله في وادي شيحاط .

٤ - ثماله : وادٍ سمي باسم القبيلة ، فاندثرت القبيلة وبقي الاسم للوادي ، يأتي من الجنوب من شفا بني عمر من ثقيف ، فيجتمع مع عمقان فيكونان وادي شيحاط فيجتمع شيحاط بلية تحت حصن مالك ابن عوف قائد هوازن يوم حنين .

٥ - وادي نغب : يسيل من جنوب الطائف عن قرب فيأخذ مياه القراحين وشعاب عديدة ثم يدفع في وادي لية من الغرب شرق الطائف ،

(١) صدره قبل ذلك للأشراف الفعور .

وفيه مسجد الصادرة ، وفيه قرابة أربعة عشر قرية كلها لقبيلة وقدان من بني سعد من عتيبة •

وهناك روافد أخرى عديدة تتركها للاختصار •

٢ - وادي وج : هو وادي الطائف ، يأخذ أعلى مياهه من شفا هذيل من أعلى السراة جنوب غربي الطائف ثم يمر بجبل برد وقرى الوهيط ثم الوهط ، ثم المشاة ، فيلتف على الطائف من الجنوب والشرق ، فإذا وصل الخرار بعد جبرة سمي وادي العرج ، ويسري عليه هذا الاسم ماراً بشواحي ثم وادي الأخيضر - قرية هناك - ثم يتجمع مع وادي شرب الآتي فيكونان المبعوث : وادي يمر تحت طريق الرياض فيذهب شمالاً في سهل ركة ، وقد يتصل بعقيق عشيرة اذا فاض •

ومن روافد وج : وادي الحيط - بسكون الياء - ، ووادي القامة ، ووادي الضيحاء • وسكنه في أعلاه هذيل ، وبين جبل برد والطائف ثقيف ، أما العرج فتختلط فيه عتيبة والأشراف ، ثم عدوان أسفله ، ثم العصمة بعد ذلك ، من عتيبة •

٣ - وادي العقيق : ويميز بعقيق الطائف :

أعلى مساقط مياهه جبل الغمير الذي يشرف على الطائف من الغرب ، ثم يأخذ على طرف الطائف من الشمال وفيه بعض أحيائه ثم ينحرف شمالاً متعرجاً فإذا مر فوقه طريق الرياض أطلق عليه « شرب » بفتح ثم كسر ، فيمر جنوب الحوية إلى أن يتصل بوادي العرج عند المبعوث • وفيه عشرات القرى مثل : القيم ، وأم الحمض ، وقديرة ، وغيرها • ومن روافده : وادي أطيلح : من جبل الغمير • ووادي مسرة :

من الغمير أيضاً وما حوله • ووادي الحوية • والريكتان : بين العرفاء
والمطار • ولشرب هذا ذكر في كتب المتقدمين • وفي أيام الفجار ، وفي
أسفله سوق عكاظ •

جبال الطائف

الطائف — كما قدمنا — منطقة جبلية ، وحولها عشرات المسميات
من الجبال مما لا يتسع له المقام هنا ، غير أن هناك جبلاً مشهورة
معروفة للجميع ، منها :

١ — جبل الغمير : تصغير غمر : هو الجبل الأسمر المشرف على
مدينة الطائف من الغرب •

٢ — برد (بفتحين) : جبل يضرب الى الحمرة جنوب غربي الطائف
على عشرين كيلاً تراه بارزاً وأنت تؤم الطائف من جهة الرياض ، وهو
الحد الفاصل بين ديار هذيل وثقيف ، وكل مياهه في وادي وج •

٣ — جبل قرنيث : جبل ذو رأسين كغزالي الشداد أحدهما أطول
من الآخر تراه بارزاً جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان من
هذيل ، ولما أن « قرنيث » اسم غريب على العربية فاني أظن أن أصل
الاسم « قرنين » مثني قرن ، ثم صحف على مر الزمن ؛ خاصة أن في
الحجاز من يتشاءم باسم القرن • وهناك قول آخر • أنظر معجم معالم
الحجاز •

٤ — دِمة : بكسر الدال المهملة ، وفتح الميم : ليس كبيراً غير

أنه من أشهر جبال الطائف ، جبل أحمر يمر الطريق من الرياض إلى الطائف بسفحه الغربي ، تقترب منه اليوم أحياء الطائف ، يمر بسفحه الشرقي وادي وج وبالعربي وادي العقيق •

٥ - شمرخ : أسمر سامق شرق الطائف يرى رأي العين •

٦ - شرقق : كشروى : جبل ليس عالياً ، عليه بعض أحياء البادية شمال الطائف على ضفة العقيق الشمالية •

قبيلة عذوان

هم بنو عدوان بن عمر بن قيس بن عيَّلان، فهم قبيلة قيسية عيلانية، منهم عامر بن الظرب حاكم العرب في عهدة ، وهذه ديارهم القديمة ، ثم حدثت بينهم حروب شتت شملهم فتفرقوا في الديار ، ومنهم اليوم عدوان بغور الأردن ، وبطون بالسراة متفرقة في القبائل ، وأبيات في حرب ، وغيرهم • وينقسم العدوانيون المقيمون اليوم بأسافل ليَّنة والعرج الى :

١ - العثامين : ذرية عثمان المضايقي وزير الشريف غالب ، ومنهم المضايقة نسبة للمضايقي أيضاً •

٢ - الحزامى (بالقصر) : سكان صُلَّبة •

٣ - ذوو سليمان : أهل العبيلاء •

٤ - ذوو مسعود : سكان المجنب والفريدة •

وقد ذكر صاحب العبر ، ونقله عنه القلقشندي^(١) ان في شمال

(١) نهاية الأرب ، وسبائل الذهب « عدوان » •

افريقيا أحياء من عدوان كانت ترحل مع بني سليم هناك ، وذكر لي أن منهم في مصر أيضاً^(١) .

وعدوان لا يزوجون بناتهم لغيرهم الا لبني هاشم ، ومن عدوان أيضاً الخماميش سكان الحوية وما حولها^(٢) .

بين الطائف وكلة المكرة

وصلنا الطائف والشمس تكنع للمغيب فانزلت أبا راشد وابنته في بيت صهره زوج الجازي ، وبعد مشادة كرمية وحلف واستغفار وجر وعتمة استطعت الانقلاط من رفقة لا تمل ، ثم توجهت إلى الضيافة العسكرية حيث الفرش الوثير والطعام الكثير ! فقضيت الليلة في نوم عميق و « رحت في سبعة بحور » كما يقولون في أمثالهم .

استيقظت في صباح يوم الخميس الموافق ١٣٩٦/٢/٧ هـ ، وبعد الافطار توجهت إلى زيارة صديقي محمد سعيد كمال ، صاحب مكتبة المعارف ، ومؤرخ الطائف ، وهو رجل حسن البشر يهش ويهش ولا يكش ! ولذا كثر رواده وأصدقاؤه ، ولا أزور الطائف الا ويكون في برنامجي زيارة الكمال . وطبعي يجفل ممن لا يتسم ولا يهش عند اللقاء ، ولذا يقل رصيدي من المتصفين بهذه الصفة غير المرغوبة .

وبعد شرب الشاي عند الكمال خرجت بعد أن أقسم يميناً أن أتغدى عنده ، فطلبت منه أن يؤجل ذلك الى أجل ففعل مشكوراً . ويخرج الطريق من الطائف إلى الغرب جاعلاً مجموعة جبال شرقرق يمينه وجبل الغمير يساره ، ثم يهبط وادي أطيلح ثم صدور

(١) كتبت رحلة عن بلاد عدوان وفروعها ، نشرت في مجلة المنهل س ١٣٩٣ هـ ص ٧١ .

(٢) انفصل بنو خماش عن عدوان بسبب واقعة حدثت ، بينهم .

مسرّة ثم يمر على سد ثلبي على ثمانية أكيال ، ثم على جبابج فريعة فيها زراعة على كيل من ثلبي ، ثم يهبط بحرة قرن على كيل من جبابج ، ثم يجعب الطريق وادي المحرم على كيل من بحرة قرن أي على أحد عشر كيلاً من الطائف ، وهو ميقات الحجاج والمعتمرين المارين في هذا الطريق ، ذلك أنه صدر وادي قرن « ميقات أهل الشرق » •

ووادي المحرم واد زراعي يأتي أعلاه من الجبله — بالمهمله وثلاث فتحات — فيسمى وادي الغديرين ، لقريش ثقيف ، ثم وادي المحرم إذا وصل الطريق ، وسكانه هنا قبيلتا النمر وطويرق من ثقيف أيضاً ، ثم ينحدر الوادي فيسمى قرناً ثم السيل الكبير ، حيث يقطعه الطريق من مكة إلى الطائف ونواحي ركة المار في نخلة اليمانية ، وهو الطريق القديم ، وفي هذا الطريق مر صلى الله عليه وسلم في غزوة الطائف •

فاذا تجاوز السيل الكبير سمي بعجاً — بضم الموحدة — ثم حراضاً ثم نخلة الشامية • فوادي المحرم هو جزء من نخلة الشامية •

وهو واد كثير البساتين والقرى ، ومياهه حسنة عذبة ، وهوائه كهواء الطائف • ثم يصعد الطريق النخبة الحمراء ، وهي أصعب طلوع في هذا الجبل ، عقبة هي امتداد جبل الجبله ومجموعته في الشمال ، ثم يرتاح منها في الهدأة •

الهدأة

وهدة من الأرض على ظهر السراة على « ١٤ » كيلاً غرب الطائف، تحيط بها الجبال البارزة ، وتتكون من وادين رئيسيين :

الأول — وادي الخولة — بضم الخاء المعجمة ، وفتح الواو — وهم بطن من النمر من ثقيف : يأتي من جبلي شعار والجبله فيسمى

وادي الأعرق ، ثم وادي الكمل — بضم الكاف وتشديد الميم — بطن من النمرور أيضاً ، ثم وادي الخولة حيث يقطع الطريق ، فيه قرى عديدة ومزارع وغابات من العرعر وأشجار السراة على جانبيه ، ثم يجتمع بعد ذلك مع وادي الغربية فيسمى الوادي وادي الأغراف ، حيث ينحدر عميقاً بين الجبال متجهاً شمالاً فيأتيه من الغرب وادي مظلم ، فإذا اجتمعا سميت الأرض الشرقية — بفتح ، وسكون — والوادي تضاع ثم الكفو فيصب في نخلة اليمانية فوق يسوم .

والثاني — وادي الغربية — بكسر الغين المعجمة ، وفتح الراء — منسوب إلى أهله من ثقيف ، يقال أنهم مغاربة نزلوا هنا فحالفوا ثقيفاً : يأخذ من شعار ومن حزوم غرب جبل مكرس ثم يشرق حتى يجتمع مع وادي الخولة السالف ذكره ، وعلى غربية تقع المعالي : مدينة الهداة الرئيسية، فيها الامارة والسوق ومركز الحركة ، والهداة ذات جو جميل صيفاً كثيرة الفواكه ، غير أن مياهها شحيحة لوقوعها على ظهر الجبل ، وقد تقدمت عمرانياً وشقت فيها شوارع وسفلت ، وترتفع الهداة عن سطح البحر « ١٩٥٠ » متراً ، ومساحتها لا تتجاوز عشرة أكيال في مثلها ، ومنها ينحدر الطريق في جبل كرا إلى تهامة .

وسكان الهداة ثقيف الآتي ذكرهم (١) .

جبال الهداة :

في الهداة أو تحيط بها خمسة قمم بارزة هي :

١ — الجبل : بثلاث فتحات ، واهمال الحاء ، والموحدة : جبل

(١) كتبت عن الهداة رحلة نشرت في المنهل ص ١٣٩٥ ، ص ٤٠٣ .

أحمر ضخّم ينقاد من الشمال - في الهدأة^(١) - إلى الجنوب حيث يتصل بقمم أخرى هي سلسلة السراة ، وتسيل مياهه الشرقية في وادي الغديرين إلى نخلة الشامية ، والغربية إلى وادي الضيقة فإلى نعلان ، وهو الحد الفاصل - هنا - بين ثقيف شرقاً وهذيل غرباً •

٢ - شعار : بضم الشين المعجمة : قمة تشرف على الهدأة من الجنوب الغربي ، يسيل منها الأعظم شرقاً ، والكر غرباً في نعلان ، وعلى شعار هذا منشأة حكومية •

٣ - دليم : بالتصغير : قمة حمراء بارزة وسط الهدأة تحيط بها أوديتها وقراها •

٤ - مكرس : عرف أحمر يشرف على الهدأة من الشمال ، على قمته موصلة تلفزيونية •

٥ - جبل هندی : قمة بين الهدأة ووادي المحرم ، وتعتبر النقبة الحمراء امتداداً لها ، مياهها الغربية في وادي الخولة ، والشرقية في وادي المحرم •

ثَقِيف

قبيلة عربية قديمة لازالت في منازلها في الجاهلية، وهم أهل الطائف وما حوله من قديم الأزمان ، فاذا ذكر الطائف ذكرت ثقيف •

(١) اخترت اسم الهدأة بالهمز للتفريق بينها وبين وادي الهداة شمال مكة ، وهو أكبر منها وكان أشهر إلى أن شق هذا الجبل فصارت الشهرة لهذا ، ولأن الهمز هنا أصح وهو من التهذيب ، أي أن من يصعد هذا الجبل يكون في حث وشدة حتى إذا تفرعه هدأ سيره وتنفس الصعداء •

وهم — مع خلاف في النسب — بنو ثقيف وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور من قيس عيلان • تمتد ديارها اليوم من شفا بني سفيان جنوباً إلى مشارف نخلة اليمانية شمالاً • لهم تأريخ طويل وحوادث جمة^(١) لا يتسع المقام لها • وتنقسم ثقيف اليوم إلى سبعة بطون كبيرة هي :

١ — طويرق : تصغير طارق : ديارها أسفل وادي المحرم ثم تأخذ شمالاً إلى تضاع •

وكمعظم قبائل ثقيف تنقسم إلى : طويرق الحضر ، وطويرق البدو ، ولكل منها فروع عديدة^(٢) •

٢ — النمر : كجمع نمر : تجاور طويرقاً من الغرب ، ولهم معظم الهدأة ، وحماهم وادي الأغراف وما حوله « حمى النمر » ويقسمون إلى : نمر وادي المحرم ، ونمر الهدأة ؛ ولكل منهما فروع •

٣ — عوف : بطن متحضر في وادي لية ، وحماهم « حمى عوف » حول غدير البنات ، ومن أشهر فروعهم الغنم : بضم الغين المعجمة ، وتشديد النون •

٤ — بنو سالم : وديارهم جنوب لية في عمقان والضيق وما جاورها ، ومن فروعهم : آل مخضور ، وآل أحمد ، وآل نافع ، وآل عابد أو عبيد ، والجردات ، وآل زيد ، وآل عمرين — بكسر العين — ، والحوثة ، والعياسي •

(١) لمصديقنا محمد سعيد كمال كتاب عن ثقيف يمد الآن للطبع ، وقد يطبع قبل هذه الرحلة •

(٢) فصلت في معجم قبائل الحجاز •

٥ - سفيان : سكان الشفا المعروف باسمهم جنوب الطائف ،
وقد نشرت عنهم رحلة في مجلة المنهل س ١٣٩٢ ص (١٠٨٠) وينقسمون
إلى : بني عمر ، وآل شريف •

٦ - الحمدة : بطن قليل يسكن وادي القيم والمليساء قرب
الطائف شمالاً •

٧ - قريش : من أكبر قبائل ثقيف ، وقد جرى بعض الباحثين
على تسميتهم : قريش غير الأشراف • أي غير قريش مكة ، وليس هناك
ما يثبت أو ينفي هذا فقد يكونون من قريش الظواهر حالفوا ثقيفاً
فكثروا هنا • ويقسمون إلى : قريش الحضر ، وقريش البدو •

وتمتد ديارهم من جبل برد صدر وج إلى وادي الغديرين فالهدأة
عند شعار ، وكانت لهم حروب وغارات مع هذيل بسبب الجوار •
والغريب أن كلمة الحضر والبدو غير منطبقة عليهم ، ذلك أنهم
كلهم أو معظمهم - حضراً وبدواً - سكان قرى وأهل فلاحه •

ثَقِيفُ تَرَعَة

وغير ما تقدم هناك قبيلة تسمى ثقيف ترعة - بكسر التاء وسكون
الراء - على ما ينطقون - منفصلة عن ثقيف الأم وديارها بين ديار
بلحارث وبني مالك جنوب الطائف على قرابة « ٨٠ » كيلاً ، ومن أهم
فروعهم : عَنَس ، وبنو يوسف • وقد يقال لهم ثقيف اليمن • غير أن
رايتهم التي حضروا بها مهرجان الطائف كان مكتوباً عليها « ثقيف
ترعة » •

ثم تنحدر الطريق كما قدمنا على جبل كرا فتمر بالمعسل، ماء عذب
نمير في صدر وادي الكر ، ثم مركز الكر على « ٤٥ » كيلاً تقريباً من
مكة ، ثم شداد بلد عثرية على « ٣٧ » كيلاً من مكة، فيأخذ الطريق في وادي

نعمان : الوادي الفسيح فيكون يمينه جبل كبكب الشهير عال منيف يرتفع قرابة « ٧٥٠ » متراً ، وعن يساره جبال سحار ورهجان والقرضة ، ثم يصعد في ريع فيهبط على عرفة ، وعرفة غنية عن التعريف هنا .

وادي نعمان

كُتبت بحثاً مطولاً عن وادي نعمان وقبائله نشر في المنهل س ١٣٩٢ هـ ص ٨٤٦ . وهذا مختصر منه : يأخذ نعمان من أعلى السراة عند الهدأة فتجتمع أول صدوره تحت الكر وهي أودية أربعة : الضيقة من الجنوب ، والكر يتمناه الطريق من الشرق ، ثم يعرج - بكسر الراء - من شفا زليفة يمين الطريق ، ثم وادي الشراء : يلابط جبل كبكب من الشرق ويسمى اليوم وادي الكباكية نسبة إلى سكانه من هذيل المذكورين بعده .

ثم ينحدر الوادي مغرباً فترفده من اليسار على التوالي : عرعر ، وصار ، ورهجان على « ٢٩ » كيلاً من مكة ، ثم الهاوتان قرب عرفة . أما من يمين الطريق فأهم الروافد وادي الوصيقي : بفتح الواو . وهو الحد بين هذيل شرقاً وقريش جنوباً .

ثم يستمر الوادي مغرباً حتى يجتمع مع عرنة جنوب غربي عرفة فيطلق على الوادي عرنة - بالنون - إلى البحر ، وعلى مصبه يقع ميناء الشعبية .

هذيل

أحدى القبائل العربية العريقة التي لا زالت في مساكنها الأولى مع تقلص بسيط من أطرافها ، وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ؛ ولا اعتبار بقول من قال : تفرقوا في الممالك

فلم يبق لهم حي يطرق، وهي أقوال درج عليها ابن خلدون والقلقشندي،
بينما كانوا يكتبون من ديار بعيدة عن الحجاز فادعوا محو قبائل الحجاز
كلها بدون علم منهم أكيد •

وتمتد ديار بني هذيل اليوم من مشارف وادي يللم^(١) الشمالية ممتدة
على السفوح الغربية للسراة شاملة أودية دفاق وضيع وملكان^(٢) ونعمان
وحنين والنخلتان اليمانية والشامية، ووادي الزبارة إلى شمال ذلك،
وفي الشرق تتداخل مع قبيلة ثقيف في حدود متعرجة، فتقترب من
الطائف في الجنوب الغربي إلى مسافة عشرين كيلاً عند جبل برد،
وقريباً من ذلك شمال الهدة في الشرقية، ثم تحدها قبيلة عتية عند
السيال الكبير « قرن المنازل » وفي حراض، والزرقاء إلى حرة المقطة •

أما من الغرب فتحدها قبيلة بني شعبة — بطن من كنانة — في
أسافل يللم وصدور إدام والبيضاء، ثم خزاعة في ملكان، ثم قریش
قرب عرفة والمُعَمَّس ثم تميل ديار لحيان خاصة من هذيل على امتداد
طريق اليمانية إلى مكة على طرفة الشمالي إلى مر الظهران وفج الرحي •

وتنقسم هذيل اليوم إلى قسمين كبيرين : المسودة ويقولون لهم
« بني » لأن كثيراً من قبائل هذا القسم يقال له بنو فلان كما سيتبع،
والفرع الثاني جميل، وكثيراً ما يقولون : هذيل اليمن وهذيل الشام •

وتكاد تكون معظم بطون « بني » من هذيل الشام، وهم سكان
شمال جبل كبكب، ومعظم بطون جميل من هذيل اليمن، سكان
نعمان وجنوبه •

(١) و(٢) كتبت عن هذه الأودية بحثاً موسعة في مجلتي العرب والمنهل
بين عامي ١٣٩٢ هـ و ١٣٩٥ هـ •

١ - المسودة : بكسر الميم :

ويروي لي أحد شيوخهم أنهم ينقسمون الى :
آ - بني : ومنهم : لحيان ، وبنو عمير ، وبنو مسعود ، والمطارفة ،
وهذه البطون تمتد ديارها من شمال مكة الى قرب الضريبة الميقات
المعروف .

ب - بنو سليم « الصلمان » وهم الحارشة ، وعقيل ، سكان
حين وما حوله ، والسعايد ، سكان نخلة اليمانية ، ومن فروعهم :
الستيرات وذوو علي وذوو منير والحبالصة . والسواهرة ومعطشان
يخالطون السعايد .

ومن أخلاف هذه البطون : الزواهره ، سكان سولة : فرع من
زيد من حرب تزلوا هنا فدخلوا في هذيل . والقناوية ، أهل الزينة :
يقولون أنهم هاشميون ، جاءوا من قنا على ساحل عسير . والحكماني ،
في نخلة الشامية : جاءوا من بني حكم بنواحي جازان فانضموا إلى هذه
القبيلة . ومن المسودة قبيلة زليفة ، بضم الزاي ، وبالفاء . يسكنوا
الشنا شمال الهداة .

٢ - جميل :

تكثر في هذا الفرع البطون التي يصعب ربطها ببعضها ، فاذا
سألتهم قالوا : بنو فلان وبنو فلان ولاء . أي بلى بعضهم بعضاً ، ولا
يسمون رابطتهم الا نادراً ومن هذه البطون : السراونة في نعان :
بطون عديدة^(١) الكباكية : نسبوا الى كبكب ، وروي لي أحدهم في
خبر يطول : أنهم أشرف أتو من المغرب^(٢) ، والحساسنة ، سكان وادي

(١) و(٢) أتيت علي تفصيلات لا يتسع لها المجال هنا في « معجم قبائل
الحجاز » .

يعرج والشرقة ، القترع ، ويقال لهم : العلويون ، ومنهم أحد عشر
بطناً : يسكنون جبل عروان ومشارف يلملم الشمالية ، والنلويون
« بنو ندا » يسكنون ضيماً وما حوله ، ودعد : يسكنون ملكان وما
حوله ، والجوابرة : يسكنون رهجان ، وبنو كعب وإياس بن رهجان
والضيقة ، والطلحات : سكان أعلى وج ، وبنو زيد حول شعار ،
والسوالمة جيران الطلحات من الناحية الغربية ؛ وهناك بطون عديدة
أخرى . والصواب أن بني زيد والسوالمة هم من المسودة لا من جميل .
وذكر صاحب « قلب جزيرة العرب » أن كلاً من كعب وإياس من
المسودة .



٦

في مكّة المكرّمة

ومن عرفات تهبط وادي عرنة — بالنون — وهو واد فحل يأخذ
أعلى مياهه من شفا زليفة وحنين ومياه كبكب الغريبة والصفاح وجبال
مكة الشرقية ، ثم يمر غرب عرفة فيجتمع مع نعمان المتقدم بعيد عرفة
— بالفاء — فيأخذ الوادي هذا الاسم الى البحر •

المجاز

وعلى هذا الوادي من الشرق يقع سوق « ذي المجاز » الشهير من
أسواق العرب ، شعب يسيل من جبل كبكب من جهته الغربية فيدفع
في وادي عرنة من الشرق عند التقاء وادي البجيدى وحنين على ثمانية
أكيال من علمي طريق نجد المار باليمانية ، وطول هذا الشعب قرابة
عشرة أكيال ، وعلى بعد ثلاثة أكيال إلى داخله ، أي على بعد أحد عشر
كيلاً من العلمين الآنف ذكرهما ، وعلى ستة وعشرين كيلاً شرق المسجد
الحرام ، وأربعة عشر كيلاً شمال عرفات توجد خرائب كانت مبنية
بالحجر الجاف « بدون مؤنة » يظهر أنها كانت تسقف وقتياً ، ربما
بالشمال ونحو ذلك ، قائمة على حزم مرتفع ، وتوجد بالقرب منها بئر
دائرية الفوهة ، وهذا هو — حتماً — سوق ذي المجاز المشهور ، الذي
كان يقوم ثمانية أيام قبل عرفة^(١) •

ثم تخرج غرباً ماراً بالعلمين — حد الحرم — وعن يمينك جبل
الخطم المنقاد يتصل به من الشمال جبال الشعر والطارقي ، وإلى اليمين
خلفك ينتصب جبل سعد الذي يشرف على عرفة من الشمال الشرقي ،

(١) عن بحث مطول نشرته في المنهل س ١٣٩٢ ص ٦٦٠ •

ومن ورائه ترى قمم كبكب ، فاذا سرت غير قليل يأتيك من اليمين وادي السقيا ، ثم تدفع في المازمين ، ويسمى أحدهما الأخشب الكبير وهو الأيمن ، يتصل شمالاً بجبل المزار ثم ثبير النصب ، والثاني الأخشب الصغير وهو الأيسر ، فاذا أفضت فأنت في المزدلفة ، رحبة بين الجبال من الشرق الأخشب الكبير والمزار والنصب ، ومن الجنوب جبل مكسر أسمر مذروب . ومن الغرب جبال منى ، والحد بينها وبين منى وادي النار ، والجبل العالي المشرف على منى من الشمال هو ثبير الأثيرة ، وقمته غيناء ، ويقال : ثبير غيناء ، ويعرف اليوم بجبل الرخم ، أما الجنوبي ، فكان يعرف بالصباح ، واليوم يقال له : جبل منى اليماني . ونهايته من الشرق « دقم الوبر » ثم تتجاوز العقبة فتكون في مجر الكبش ، وهو قسم من وادي المحصب ، ويشرف عليه من الشمال جبل الغسالة ، فاذا دفعت فأنت في « الاقحوانة » وقسمت اليوم إلى حي الروضة ، وحي الشثة وغيرها .

ثم يتكون أعلى وادي مكة ، وفروعه الأولى تأتي من جبال الطارقي وثقبة وثير الأثيرة وحراء ثم تتجمع عند البياضية فينحدر متعرجاً ، يمينه جبال : أبي دلامة ثم أذاخر ، ثم قعيقعان ثم ثبير الزنج المعروف بجبل المسفلة . أما من اليسار فجبال الخنادم وأبو قيس وجبل خليفة ، وجبل الميثب ، وقرب هذا الجبل يجتمع بوادي مكة واديها الثاني « وادي طوى »^(١) وهو واد يأتي من سفوح جبل اذآخر الغربية فيمر غرب قعيقعان ، وفيه بئر طوى الشهيرة ، وأحياء كثيرة من

(١) عن تفاصيل أوفى عن هذه الأودية - انظر المنهل س ١٣٩٢ هـ ص ٥٥٤ وعن جبال مكة كتبت عدة بحوث أحصيت فيها « ١٦٠ » مائة وستين جبلاً ، غير أن العرب توقفت قبل نشر تلك البحوث أو بعضها ، وكل هذه الجبال موضحة في « معجم معالم الحجاز » ومحددة بدقة .

مكة كالعتيبة وجرول ، والتتضاوي والحفائر وغيرها • ووادي مكة
المار بالمسجد الحرام يسمى وادي ابراهيم ، ومدفعه في عرنة من الشمال ،
وليس عند الشميسي كما توهم بعضهم •

والوادي الثالث في مكة هو وادي فخ: يأخذ من جبل حراء وقرب
علمي طريق نجد وجبل الستار ثم يدفع شمال الوادين الآتفين ، وكان
يسمى أعلاه « مكة السدر » ثم يسمى فخاً ، وفيه الوقعة المشهورة بين
العلويين والعباسيين سنة ١٦٩ هـ ويسمى هذا الموقع الشهداء^(١) ، فاذا
تجاوزته كان يسمى « بلدح » ثم يدفع في مر الظهران ماراً بالشميسي
« الحديدية » •

وعليه أحياء : الزاهر والزهراء والنزهة وأم الجود ، وفي أم الجود
مقر رابطة العالم الاسلامي ونادي مكة الأدبي « الثقافي » وأقيم هناك
فندق كبير •

ازدهار مكة

ليس هنا مجال لذكر تأريخ مكة ، فتأريخها يملأ مجلدات ضخام ،
انما نذكر نبذة عن تطورها في عصور عديدة ؛ ومكة هي قبلة المسلمين
في مشارق الأرض ومغاربها وهي المدينة الأولى لديهم بلا منازع ، فما
منهم من يتسنى ويصر على رؤية مدينة في الدنيا كمكة ، شرفها الله •

ويقول المؤرخون : ان أول من بنى الكعبة المشرفة ابراهيم الخليل
عليه السلام •

وقيل بل كان أبناء آدم قد بنوا البيت من الطين ؛ ولما فرغ ابراهيم
من بنائه أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج • فقال : ربي ، وما يبلغ

(١) انظر المنهل س ١٣٩٢ ص ٥٥٤

أذاني ؟ أو كما قال • فقال الحق جلا وعلا : أذن وعلي البلاغ • فلم يبق
على ظهر الأرض من لم يسمع صوت ابراهيم •

وظل الناس يحجون إلى هذا البيت وما يجرؤ أحد أن يبتني في هذا
الوادي حتى جاء قصي جد رسول الله الخامس فجمع قريشاً في مكة
واستولى على مفاتيح البيت من خزاعة فبنى أول دار للسكن حول البيت
وجعل فيها اجتماع قريش فسميت دار الندوة ، وكان الناس يظنون أن
من يبنّي بيتاً بجوار بيت الله قد تصيبه قارعة ، فلما رأى قصياً لم يصب
بأذى سارعوا إلى البناء فقامت من يومها مدينة مكة المكرمة قبل ما يقرب
من مائتي سنة قبل البعثة النبوية • وكانت مقسمة أرباعاً لقريش ، فلما
جاء الاسلام أخذت القبائل حولها ترغب في التحضر فكان يخط لهم
فيسكنون ، فلما فتح الله على المسلمين بلاداً واسعة أخذت مكة تزدهر
بحيث تضاعف عدد الحجاج فتضاعف دخل أهلها فأخذ في عمارتها ،
حتى أن عيون هذا البلد القاحل بلغت العشرين عيناً ، ووصل عمرانها
إلى قرب جبل حراء •

ثم توقف هذا النمو زمنًا طويلاً لانصراف أهل الثروة عنها ،
والناس تباع السلطان ، غير أنها ظلت من أعمر مدن الجزيرة العربية
لتبلغ أهلها بموسم الحج وما يدرّ من موارد • ولما توحدت جل أجزاء
الجزيرة العربية في منتصف هذا القرن ظلت مكة عاصمة المملكة العربية
السعودية ما يقرب من ثمان وعشرين سنة ، فازدهرت وتقدمت على
كل مدن المملكة ، وتشهد اليوم تطوراً ما شهدته من قبل وخاصة في
مشاعر الحج حيث أقيمت الجسور المعلقة العملاقة وشقت الشوارع
وعبدت ، وأخذت تتسع عمرانياً ، ويقدر عدد سكانها اليوم بنحو
أربعمائة ألف ، رغم أن الكثيرين هجروها خلال العشرين سنة الماضية
إلى جدة والرياض حيث فرص العمل صارت أكثر، وطرق الاثراء أسهل •

وستظل مكة مدينة الاسلام وعاصمته ومهوى أفئدة المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وطوبى لمن أكرم أرضاً أكرمها الله وخصها ببيته العظيم ، وطوبى لكل من ساعد في اعمارها وازدهارها •

قريش

واذا ذكرت مكة ذكرت قريش ، فهي القبيلة التي يذكرنا اسمها دائماً اسم مكة ، كانت قريش متفرقة في القبائل حتى جاء قصي فجمعها فسمي مجتمعاً فأزلها مكة فكان منهم سكان ما حول الحرم فسموا قريش البطاح ، ومنهم بنو هاشم وبنو أمية ، وهم بنو عبد مناف ، وبنو زهرة وبنو مخزوم وبنو تميم وبنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، وبنو جُمح وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب • ويقال لعامتهم : بنو كعب بن لؤي •

وقريش الظواهر هي : قبائل بني عامر بن لؤي بن يخلد بن النضر •

وفي سبب تسميتهم بقريش خلاف ، غير أن جمهور النساين أن أبا قريش هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر الخ كانت لقريش السيادة على البيت فاحترمتها القبائل واجلتها ، وخرج فيها عظماء كهاشم وابنه عبد المطلب ، ثم توج الله هذا المجد التليد باختيار محمد صلى الله عليه وسلم من قريش ثم من بني هاشم •

وفي الاسلام زاد عز قريش حتى قيل أن العرب لا تسلم قيادها الا لقرشي ، فحاول البعض الانتساب زوراً لهذه القبيلة طمعاً في السلطة •

ومن قريش الخلفاء الأربعة ، وملوك بني أمية وبني العباس ،

وتفرقت بطون قريش في الأمصار وخاصة أبناء الصحابة والهاشميين الذين كان يسهل عليهم تسلم القيادات الروحية حيث حلوا ، وإذا استثنينا الأشراف من قريش فإن الموجود منهم اليوم حول مكة قليل جداً، وهناك قريات صغيرة منها قرية العُجْرة شمال غربي عرفة، وأخرى جنوب غربي مكة عند جبل لبنين ، وبوئيات لأبي السمن شمال عرفة قرب سلع^(١) ، أما ديارهم فهي عرفة وشمالها إلى الصفاح ، وغربها إلى جبل ثور ، مع تداخل أملاك الأشراف معهم . أما الأشراف وهم فرع من بني هاشم من قريش فإن قبائلهم الآن عديدة الفروع كثيرة العدد^(٢).

خزاعة

قبيلة عربية عريقة قديمة ، ارتبط اسمها بمكة مرادفاً لاسم قريش، وقيل : إن خزاعة قبيلة أزدية ، وهم بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مِزْيَقِبَاء ، وقال آخرون : انهم مضريون ، وان عمراً ابن لحى ابن قمعة بن الياس بن مضر، والخلاف يطول ذكره هنا^(٣) نزلت خزاعة حول الحرم بعد تهدم سيل العرم فاستولت على مكة ومفاتيح البيت حتى أخذها منها قصي ، فحاربت خزاعة قريشاً فانتصر القرشيون فطردوا خزاعة الى مر الظهر ؛ وفي أول الاسلام حالفت خزاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد كنانة وقريش .

خزاعة اليوم :

تنقسم خزاعة اليوم إلى: خزاعة الوادي، ويسمونها قرية تعرف بدف خزاعة في الطرف الجنوبي من مر الظهران شمال غربي مكة .

(١) هو غير سلع المدينة .

(٢) جاء على جلها صاحب الرحلة اليمانية الشريف شرف البركاتي، وفصلت بطونهم في « معجم قبائل الحجاز » .

(٣) بحثه مطولاً في معجم قبائل الحجاز .

وخزاعة البر ، وتسكن أسافل أودية عرنة وملكان^(١) وما جاورها جنوب غربي مكة ، وتنقسم الى بطنين : طلحة ، والصقارية . وهم بادية رحل استوطن معظمهم مكة في موجة الهجرة التي تجتاح البادية اليوم^(٢)

ونزل على خزاعة في ديارهم بطن من البقوم يقال له « الموركة » فرع من موركة البقوم . ثم نازعوهم الديار فكانت دعاو ومرافعات ، ونزل إليهم أيضاً « المجانين » فرع من لحيان من هذيل ، وأصلهم من حرب دخلوا حلفاً في لحيان^(٣) فاجتدعوا من ديار خزاعة قسماً ، ولم يبق اليوم لخزاعة من الأرض الا ما عمروا بأيديهم ، ولديهم وثائق قديمة تحد ديارهم شمالاً بدرب الحب « الطريق بين مكة وجدة » وجنوباً إلى قرب وادي البيضاء ، وشرق درب المعرفات ، وغرباً ديار العرامطة الاشراف عند خثارق وجبل عَمَر وسطاع .

كنانة

احدى قبائل الحجاز العريقة ، كانت عند بزوغ فجر الاسلام تمتد ديارها من بدر في وادي الصفراء شمالاً إلى قرب جازان جنوباً ، ممتدة على الساحل . وهم : بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

من بطونها : قريش المتقدمة ، وعبد مناة ، وبنو مالك ، وبنو الليث ، وبنو ضمرة وكانت منازلهم وعامة بني بكر بالأبواء والبزواء وما حولهما ، وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة منها : ضمرة ، والليث وغفار ، ومن كنانة بنو فراس ، كانوا يسكنوا الكديد قرب خليص ،

(١) و(٢) كتبت بحثاً مطولاً عن وادي ملكان في مجلة العرب ٩ م ص ٥٠٨

(٣) فصلت قصة ذلك وفروعهم في كتاب « نسب حرب » .

وهم الذين يقول فيهم الامام علي رضي الله عنه : وددت أن لي بكسم ألفاً من بني فراس • يعني جيشه ، ومن بني فراس ربيعة بن مكدم حامي الظعينة^(١) . وكان من كنانة بنو شعبة حول إدام •

وتفرقت كنانة في الاسلام ، وحلت قبيلة حرب ديار كنانة الشمالية — بين مكة والصفراء — فاندمجت أحياء من كنانة في حرب •
كنانة اليوم :

أكبر بقايا كنانة اليوم قبيلة بني شعبة : قبيلة تقع ديارها جنوب مكة تجاور هذيلاً من الجنوب الغربي ، ممتدة من وادي إدام شمالاً إلى ما وراء الليث جنوباً •

ومن فروع بني شعبة :

١ — الحجدلة : سكان ادم إلى سعياء ، ومنهم : آل راشد والجملة ، والسليم •

٢ — عَضَل : سكان وادي مركوب « ١٢٧ » كيلاً جنوب مكة •

٣ — الزفابحة — بالموحدة قبل الحاء المهملة — : سكان وادي الغالة قرب الليث •

٤ — رحمان : في أطراف وادي الليث الشمالية •

٥ — الجبرة : سكان بلدة غميقة وما جاورها •

٦ — بنو شهاب : شرق وجنوب شرقي الليث^(٢) •

وليس لكنانة هذه صلة بكنانة زهران ، فتلك ثابت نسبها في زهران قديماً^(٣) •

(١) تحدثت عن بني فراس في مجلة العرب م ٧ ص ٣٧١ •

(٢) لتفاصيل أوفى انظر العرب م ٩ ص ٦٤١ •

(٣) ولا زالت هناك قبيلة تحمل اسم كنانة بأسفل وادي حلي ، ينتسب أفرادها كناني ، وحل كان من ديار كنانة قديماً ، كما يوجد فرع بهذا الاسم في بني شهر ، ولا أعلم صلته بكنانة العدنانية ، وديار بني شهر قريبة من ديار كنانة •

الختام

ليست هذه الرحلة تقصياً للنصوص ، ولا سجلاً تاماً لما هو كائن ،
انما هي مشاهدات وانطباعات وعرض لمعالم عزيزة من بلادنا لم تحظ
- حتى الآن - بالدراسة المركزة •

ولم أقل في هذا الختام :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

بل لا زالت تحمل عصى الترحال ، والحياة رحلة قد تكون طويلة
وقد تكون قصيرة • وواصلت هذه الرحلة البرية من مكة إلى تبوك عن
طريق المدينة ، غير أنني سبق أن كتبت رحلتين عن هذا الطريق وما
حوله ، هما :

« في طريق الهجرة » و « في شمال الحجاز والأردن » فأغنى ذلك
عن الاعداد ففي كثير من الاعدادات الملل وضياح الوقت •

مكة المكرمة

في ١٣٩٦/٢/١٥ هـ

مراجع البحث

- ١ - البيان والتبيين للجاحظ
- ٢ - ديوان الحطيفة
- ٣ - ديوان الأعشى
- ٤ - السيرة النبوية لابن هشام
- ٥ - أيام العرب في الجاهلية
- ٦ - أخبار مكة للأزرقي
- ٧ - شفاء الغرام للفاسي
- ٨ - الاشتقاق لابن دريد
- ٩ - معجم البلدان لياقوت الحموي
- ١٠ - معجم ما استعجم للبكري
- ١١ - مدينة الرياض للجاسر
- ١٢ - المجاز لابن خنيس
- ١٣ - في سراء غامد وزهران للجاسر
- ١٤ - معجم معالم الحجاز للكاتب ،
معد للطبع
- ١٥ - معجم قبائل الحجاز للكاتب ،
مخطوط
- ١٦ - مجلة العرب للجاسر
- ١٧ - مجلة المنهل للأنصاري
- ١٨ - معجم قبائل العرب لعمر رضا
كحالة
- ١٩ - نهاية الأرب للقشقلندي
- ٢٠ - المنجد
- ٢١ - القاموس للفيروز أبادي
- ٢٢ - سبائك الذهب للسويدي
- ٢٣ - مخطوطة للاستاذ محمد سعيد
كمال
- ٢٤ - الاكليل للهمداني
- ٢٥ - معجم الادباء لياقوت
- ٢٦ - الرحلة اليمانية للشريف شرف
البركاتي
- ٢٧ - خرائط الرياض والطائف ومكة
- ٢٨ - سبط النجوم الموالي للمصافي

دليل الموضوعات العامة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٨	الربيعية	٣	المقدمة
٣٨	الشماسية	٨	بين المدينة والرياض
٣٩	نفود الثويرات	١٠	على طريق القصيم
٤٠	نفاد الوقود	١٠	بدء الرحلة
٤١	الزلفي	١٠	الصويدرة
٤٣	ليلة في الزلفي	١١	الشقرة
٤٣	مليح	١٢	الحناكية
٤٤	الفاط	١٤	عرجاء
٤٤	المجمعة	١٥	النقرة
٤٧	قبيلة مطير	١٦	بنو حرب
٤٨	فروع مطير	١٨	عقلة الصقور
٥٠	جلاجل	٢٠	طمية وقطن وعكاش
٥٠	التؤيم	٢٢	وادي الرمة
٥١	روضة سدير	٢٤	الخيمة
٥١	الحصون	٢٤	الحصر
٥١	الحوطة	٢٦	ثادق
٥٢	في الرياض :	٢٦	الروضة
٥٣	الدرعية	٢٦	البتراء
٥٤	أول يوم في سلاح الحدود	٢٧	أبانان
٥٥	عبد الله بن رداص	٢٨	صبيح
٥٥	عبد الرحيم الأحمدي	٢٩	الذبيبة
٥٦	الحديث عن الأرض والمساهمات	٣٠	الحجازية
٥٧	ناهض الناهض	٣١	الدليمية
٥٩	عبد الله بن خميس	٣١	ساق الجواء
٦٢	حفل الصفوة	٣٢	القرين
٦٣	العيينة وسدوس وحريملاء	٣٢	جنان القصيم
٦٣	عقرباء	٣٤	رياض الخبراء
٦٥	الجبيلة	٣٥	البدائع
٦٦	العيينة	٣٥	الهلالية
٦٦	الحيسيات	٣٥	الشيحية
٦٧	سدوس	٣٥	المليداء
٦٨	حريملاء	٣٦	عيون الجزى
٧٠	القرينة	٣٦	طريق حائل
٧٠	صلبوخ	٣٦	بريدة

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المويه الجديدة	١٢٠	الرياض	٧٩
رضوان	١٢١	انطباعات	٨٠
بين رضوان والطائف	١٢٢	موقع الرياض	٨١
موقع سوق عكاظ	١٢٤	تأريخ الرياض	٨٢
الحوية	١٢٥	مخطط لمدينة الرياض	٨٣
قبيلة عتيبة	١٢٥	قبائل العارض	٨٦
فروع عتيبة	١٢٥	قبيلة سبيع	٨٦
يرقا	١٢٦	قبيلة السهول	٨٧
شملة	١٢٦	الحركة الأدبية في الرياض	٨٨
بنو سعد	١٢٧	أودية الرياض	٨٩
الروقة	١٢٧	مخطط لأودية الرياض	٩٠
الطائف	١٢٩	جسر وادي حنيفة	٩٤
سكان الطائف	١٣١	جبال الرياض	٩٥
أودية الطائف	١٣١	اليمامة	٩٦
جبال الطائف	١٣٤	من الرياض الى مكة	٩٨
قبيلة عدوان	١٣٥	رفقة على غير موعد	٩٩
بين الطائف ومكة	١٣٦	ديراب	١٠٠
الهدأة	١٣٧	الجوازي	١٠١
ثقيف	١٣٩	الغطف	١٠٢
فروع ثقيف	١٤٠	ضرماء	١٠٢
ثقيف ترعة	١٤١	مراة	١٠٣
وادي نعمان	١٤٢	ثرمداء	١٠٦
هذيل	١٤٢	أثيثية	١٠٨
في مكة	١٤٦	شقراء	١٠٩
المجاز	١٤٧	ليلة في شقراء	١١٠
ازدهار مكة	١٤٩	بين شقراء والدوادمي	١١٢
قريش	١٥١	الدوادمي	١١٣
خزاعة	١٥٢	البيجادية	١١٤
كنانة	١٥٣	عفيف	١١٥
المراجع	١٥٦	ظلم	١١٧
		مخطط ركبة ولسي	١١٩

